اقرأ

محمد محمود زيتون

الصين والعرب عبر التاريخ



دار المعارف

الصين والعرب
عبر التاريخ

محمد محمود زيتون

الصين والعرب
عبر التاريخ

اقرأ ٢٥٣

دار المعارف

اقرأ ٢٥٣ – يناير ١٩٦٤

ملتزم الطبع النشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقديم

توثقت العلاقات بين العرب والصين منذ أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان . . . ومنذ ذلك التاريخ الطويل إلى يومنا هذا . . . وللصين فى « التراث العربى » حظ موفور . . . سبقوا به سائر الأمم المتحضرة فى تبيان ما تركه أهل الصين — فى مختلف العصور ، وعلى تباين الأوضاع — من معالم الحضارة ، ومعارف الثقافة .

وكان تناول المؤلفين العرب للآثار الصينية على جميع أشكالها أمراً يدعو إلى الدهشة والعجب ، وخصوصاً إذا عُرض على المقاييس المنهجية الحديثة . . . ذلك أن العرب — فيما تناولوه عن الصين — كان رائدهم الصدق فى الرواية ، والدقة فى المشاهدة ، والبعد عن الأهواء والنزعات . . . فنرى الرحالة ابن بطوطة مثلا . . . على الرغم من المضايقات التى صادفته بالصين . . . وعلى الرغم من مظاهر الحفاوة التى قوبل بها هناك من التجار والأمراء الحاكمين على السواء . . . لا يتورع من الحديث عن الصين بقلم رزين مبرأ من المدح والقدح .

وإذا كان هذا هو حظ العرب من « المنهج » . . . الذى توصلوا به إلى غاية لا وراءها من حيث الصدق والوثاقة ، فإنهم لم يكونوا أقل حظاً من هذا التوفيق ، من حيث « القيمة

العلمية » التى على أساسها يقاس كل عمل ثقافى . . . مهما يكن لونه . . . فالعرب ولا شك كانوا أيضاً أسبق من غيرهم فى تنمية الثروة الفكرية . . . على مستوى قومى . . . بل إنسانى . . . بما سجلوا من معلومات تنبض بالحياة . . . عن بلاد نائية عنهم بآلاف الأميال . . . والمسالك إليها غير مأمونة العواقب . . . من أخطار البر والبحر . . . ومن الكائنات الطبيعية سواء فى ذلك الوحوش والأناسى .

ولسنا نزعم أن انطباعات الصين عند العرب وجدت لديهم التنظيم والتصنيف ، مما هو ظاهر فى المؤلفات الحديثة . . . ولكن من العدل . . . وليس من التبرير لعجز أو تقصير . . . أن نقول إن مادة العرب عن الصين كانت غزيرة ووافية ومنوعة . . . بحيث تستطيع بكل جدارة أن تغطى جميع الجوانب الثقافية . . . إذا وجدت من يؤلف بين شتاتها ، ويخلص غثها من سمينها . ويرد فروعها إلى أصولها . . . عندئذ يحق لنا أن نقول عن العرب إنهم حقاً أول رواد الثقافة الاجتماعية . . . بما قدموه لعلم الأجناس البشرية أو (الأنثروبولوجيا) . . .

وهذا الكتاب . . . على صغر حجمه . . . محاولة متواضعة لاقتحام هذا الباب .

الإسكندرية — محمد محمود زيتون

الفصل الأول

تجارة ... أم حضارة ؟

العرب والعالم :

قبل أن تبزغ شمس الإسلام على جزيرة العرب . . . ألف أهلها رحلتين كل عام من مكة . إحداهما إلى الشام صيفاً . . . والأخرى إلى اليمن شتاء . . . فكانت هاتان الرحلتان بداية لتكوين علاقات جديدة بين العرب وبين غيرهم من الشعوب .

ولئن كانت هذه العلاقات ، قد اتسمت — كما يبدو للنظرة الأولى — بالطابع التجارى ، فإنها كانت بمثابة الطريق الذى درجت عليه السياسة الخارجية للعرب ، فى صورة بدائية .

ولما انتشر الإسلام فى أرجاء الجزيرة ، انتقل العرب انتقالاً أبعد مدى ، مما كانوا يهدفون إليه من قبل ، فعرفوا — عن طريق الدعوة والفتح — بلاداً كثيرة كالحبشة ومصر وبلاد الفرس والروم والمغرب . . . وعبروا إلى أوربا ، بعد الفتح الأندلسى ، واختراق جبال البرانس . . . وركبوا البحار وفتحوا الجزر . . . كما ولوا وجوههم شطر المشرق ففتحوا فارس والهند والسند والصين . . . وعززوا مراكزهم فى تلك البلاد . . . التى وردت فى التراث العربى قديمه وحديثه شعراً ونثراً . .

وكان لهذا التراث أكبر الفضل على الثقافة الإنسانية ، لأنه احتفظ بمعالم هذه الروابط والصلات . . . بين العرب والأمم التي عرفوها . . . واستطاع الغربيون والمستشرقون أن يترسموا — في أحاديثهم عن الحضارة العربية — خطى العرب . . . أينما رحلوا وحلوا . . . وأن يتبينوا مواطن التأثير والتأثر ، في تفاعلهم مع هذه الأمم . . . القاصي والداني منها على السواء .

ما أبعد الصين ! . .

كان العربي القديم — إذا أراد التعبير عن المكان البعيد — ذكر الساحل الشرقي للجزيرة العربية . . . فهذا عمار بن ياسر يقول للنبي : « والله لو هزمونا حتى أبلغونا سَعَفَات (هَجَر) لعرفنا أننا على الحق ، وأنهم على الباطل » .

وكان النبي عليه السلام ، في معرفته بالبلدان ، أبعد مدًى ، وأوسع أفقًا من عمار وغيره ، فقد كان يذهب في التجارة إلى الشام قبل البعثة . . . وروى عنه قوله : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . . . وما أبعد الصين عن هجر . . . عاصمة البحرين . . . الواقعة على ساحل الجزيرة شرقًا .

ومن المؤكد أن النبي لم يرحل إلى الصين . . . ولا إلى ما دونها بكثير . . . ولكن هكذا جاءت الرواية عنه . . . وسواء كان هذا الحديث صحيحًا أم ضعيفًا ، فإن علماء الحديث قد اتفقوا على جواز العمل بالحديث الضعيف . . . في

فضائل الأعمال . . . وأكد ذلك الإمام الحافظ ابن دقيق العيد الذى توفى سنة ٧٠٢ هـ .. وفى مثل هذا الحديث حفز للعرب على اختراق الآفاق . . . فى طلب العلم . . . ولو كان ذلك فى الصين . . مضرب الأمثال فى البعد والاختلاف . .

ومهما يكن من شيء . . فقد ورد ذكر الصين على لسان العرب . . فى فجر الإسلام . . . ثم فيما بعد ذلك من العصور . . . ولكن يحق لنا أن نتساءل : لماذا أراد العرب أن يعرفوا بلاد الصين ؟ ومتى عرفوها ؟ وكيف وصلوا إليها ؟ وعلى يد من ؟ ثم من ؟ وما أثر العرب فى الصين ؟ وما أثر الصين فى العرب ؟ وكيف تطورت هذه العلاقات بينهما عبر السنين ؟ وهل كان لهذه العلاقات أثرها . . . فى إثراء الثقافة العربية . . . وبالتالى فى المعرفة الإنسانية ؟ . . .

وفيما يلى من الصفحات محاولة جادة للإجابة عن هذه الأسئلة . . . استناداً إلى أوثق المصادر العربية والإفرنجية . . . التى دبجتها أقلام عربية وصينية . . . بعضها قديم . . . وبعضها حديث . . . منها المترجم ومنها الأصيل . . .

ولعل فى كشف اللثام عن هذه الآثار . . ما يزيد الصلات التى بين العرب والصين قوة . . . خصوصاً أن الصين وحدها تشتمل على ربع سكان العالم . . . وتعمل الآن فى ميادينها العمرانية بسرعة مذهلة . . . بعد النكبات والمحن . . التى تلقتها من أيدى المستعمرين جملة وفرادى . . .

فاستطاعت بنضالها المرير أن تاحق بركب الحرية . . . وتمضى فى سبيل السلام .

لماذا . . الصين ؟

نعم . . . لماذا أراد العرب القدامى أن يعرفوا بلاد الصين . . على الرغم من طول المسالك ووعورتها ، ومع اختلاف الظواهر الجغرافية ، والمظاهر الحضارية فيما بين الأمتين . . . ؟ !

التجارة لاشك هى أهم البواعث التى حملت العرب الأولين على تبادل المنافع مع غيرهم . . ولو مع أهل الصين . . . وإذا كان العرب — قبل الإسلام — قد فعلوا ذلك ، فخيراً فعلوا . . . وبرهنوا على حبهم للحركة والانتقال ، والتماسهم كل وسيلة للتعارف مع سائر الشعوب .

وإذا كان الإسلام قد افترض الحج على الناس مرة فى كل عام . . . فيفدون على البيت الحرام رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . . . فقد شرع الله للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها هذه العبادة ليشهدوا منافع لهم . . . فى موسم الأمان والإيمان . . .

أيهما كان الأسبق فى الاتصال بالآخر ؟ نستطيع أن نقول إن الصين مثلا كانت السباقة ، عندما استقر بربوعها أولاد نوح ، ثم صنعوا السفن وأرسلوا عليها إلى سائر الأمم مندوبين يحملون الهدايا ويوجهون الدعوة لزيارة البلاد النائية

المتطرفة . . . قد يكون هذا صحيحاً إذا صدقت الرواية التاريخية . . . ولكن مما لا شك فيه أن العرب بعد ظهور الإسلام . . . حرصوا على إذاعة دعوته فى المشارق والمغارب . . . فحملوها التجار والغزاة . ... ونهضوا بها . . . ووجدت حيثما كانوا تربة صالحة فنمت وترعرعت . . . وعلى ذلك يكون « دين العرب » الجديد . . . حافزاً قوياً للعرب على التعرف بالأمم . . .

حافز آخر . . . هو أن قصة ذى القرنين وسد يأجوج ومأجوج . . . قد وردت فى القرآن الكريم . . . فكان من الطبيعى أن يشدوا الرحال . . . للوقوف على موضع السد . . . وموطن يأجوج ومأجوج . . . والتحقق من أقوال المفسرين والمحدثين . . . بهذا الصدد . وذلك كما يقولون من باب العلم بالشيء . . . فهل كان ذلك بالصين ؟ على كل حال لقد جاء فى الحديث الشريف « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . . . فليطلبوه ولو فى الصين .

وأخيراً نرى أن العرب ممن تتشبث بالقول الحكيم عقولهم . . . وتشرئب له أسماعهم . . . ويحفزهم ذلك إلى التماس غاياته وأهدافه . . . فقد قيل « إن[1] الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهل الأرض . . . أدمغة اليونان ، وأيدى أهل الصين ، وألسنة العرب » . وهذا التفوق فى الصناعة عند الصين ،

---

(١) نفح الطيب .

مما لمس العرب عجائبه وغرائبه ، فجلبها التجار إلى بلادهم ، ودارت حولها أحاديث المجالس . فالتقطها المؤلفون وسجلوها ، وأضاف إليها الرحالة ما شهدوه بأنفسهم .

من أجل هذا كله أبرز العرب معالم الحضارة الصينية ومعارف ثقافتهم . . . ومهما يكن من وفاق أو خلاف فى الكتابات العربية عن الصين . . . ومهما يكن مصدرها شهادة أو رواية أو دراسة فإن العرب بعملهم هذا كانوا الرواد الأولين فى ميدان علم (الأنثروپولوجيا) .

فى سبيل التجارة :

وقديماً . . . كان العرب أهل حركة ونشاط ، فى البر والبحر على السواء . . . وكان لبعض القبائل العربية قوافل باسمها تجتاز الممالك والأقطار ، صاعدة هابطة ، بين السهول والبطاح ، وكان لبعضها الآخر سفنها الشراعية ، تمخر عباب الخلجان والبحار والمحيطات ، يستقلها أهل التجارة ، وعشاق المغامرات ، من الجغرافيين والمؤرخين والفلاسفة والسفراء والغزاة .

وتعتبر المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب من أقدم حضارات العالم وأرقاها ، وأحفلها بمظاهر الحياة على اختلاف جوانبها ، وكانت « سبأ ومعين » مهد الحضارة الحميرية من سنة ١١٥ق.م حتى سنة ٥٢٥ م ، تلك الحضارة التى ازدهرت أيما ازدهار بسبب الموقع الذى تتميز به . . . فهى ملتقى خيوط شبكة

المواصلات بين الشرق والغرب ، فتوثقت عن طريقها الصلات العربية مع الهند والصين وسواحل إفريقية وداخلها وروسيا .

فى هذه القرون السحيقة ، لم تكن أوربا تعرف شيئاً عن إفريقية غير شواطئها ، وكان وجود بلاد الشرق الأقصى فى نظر الأوربيين إحدى أساطير الأولين ، أما العرب فكانوا أسبق الشعوب ارتياداً لهذه البلاد .

وبلا شك . . . كانت طرق القوافل أيسر وأوفر من طرق الملاحة ، فقد كانت متاجر الصين تأتى عبر المدن الشهيرة مثل سمرقند وبغداد ودمشق وحلب وسائر مرافئ البحر الأبيض المتوسط ، ومنها إلى أوربا . . . وتتصل بالهند كذلك — عن طريق القوافل لدى مرورها بفارس وكشمير وموانئ الخليج الفارسى وأشهرها (سيراف) . . . ومنها تقلع المراكب إلى عدن حيث تلتقى السلع الوافدة من الصين والهند بحراً ، آخذة طريقها إلى السويس والإسكندرية ، وموانئ الشام ومدنها ، فيأتى أرباب التجارة من جنوة وفلورنسة وبيزا وكتلونة لنقل متاجر الشرق وكنوزه إلى أوربا ، التى كان يبهرها بريق الطرائف الشرقية أياً كان نوعها ومصدرها .

على أن أهم تلك الأسواق التجارية ما كان فى عدن . . . التى طالما تبودلت فيها منتجات الهند والصين مع منتجات الحبشة ومصر ، وأرقاء النوبة ، فضلا عن العاج والذهب . . . كل ذلك كان يستبدل به هناك الحرير والخزف وغيرهما من

واردات الصين . وكذلك كان التجار — ومعظمهم من العرب — يجلبون إلى الصين المنسوجات الكشميرية والعطور ، ومنتجات بلادهم أيضاً من منسوجات صوفية ومرجان وخيول ، مع نفائس أوربا كالأجواخ القرمزية الزاهية الألوان التي اشتهرت بها البندقية .

ولما كان أهل الصين وعلى رأسهم الملوك والأباطرة يغرمون بشراء الخيول وانتقائها من أجود الفصائل ، فقد كانت للصين تجارة رائجة فيها مع البلاد المجاورة لها من جهة الغرب مثل سمرقند وبخارى وخيوا والعراق ، وهذه البلاد بدورها أصبحت تتصل بالصين للتجارة عن طريق القوافل بصفة دورية منتظمة ، وقد أسهب بدر الدين حي الصيني مؤلف كتاب « العلاقات بين العرب والصين » فى تحديد معالم طرق تلك القوافل ، قبل الميلاد بقرن من الزمان .

ولما زادت الروابط التجارية فى القرن الثانى للميلاد بين الصين والرومان ، لم يعد الأوربيون يقفون بتجارتهم عند الشام وأرمينيا ونصيبين ، وإنما وجدوا الطريق ممهداً لهم إلى الصين عبر بلاد الفرس ، فقصدوا إليها على سبيل المتاجرة والمغامرة .

وأراد الفرس أن يستبدوا بتجار أوربا الذين يعبرون بلادهم فيما بين الغرب والشرق الأقصى ، فتحولت التجارة من طريق القوافل البرية إلى طريق البحر ، مما شجع (ماركوس أوريليوس أنطونيوس) على السفر إلى الصين سفيراً للتجارة سنة ١١٦ ميلادية . وليس معنى هذا أن الطرق البرية قد انقطعت نهائياً فيما بينهما

عبر الشام ومصر . . . بل استمرت حتى لنرى اسم (الإسكندرية) محرفًا فى كتابات المؤلفين الصينيين فى القرن الثالث الميلادى ، كما ورد ذكر غيرها من موانئ مصر والشام ، مما يدل بصفة قاطعة على أن الأقطار العربية كانت همزة الوصل الوثيقة بين الشرق والغرب قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

ومما يروى أن عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى قال يومًا لخالد بن الوليد : ما تذكر ؟ فقال : أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون ، كما أن أهل الصين كانوا يطلقون كلمة (تاشى) على العرب ، وأغلب الظن أنها محرفة عن كلمة (تاجر) ، وفى هذا دليل على وجود العنصر العربى بالصين . . . ممتازًا فى ميدان التجارة بالنسبة لغيره من الوافدين على البلاد . وثمة رأى آخر يقول إن هذه الكلمة الصينية ربما تكون تحريفًا للكلمة الفارسية (تازى) ومعناها العرب .

ومهما يكن من شىء فإن العرب قد عرفوا الصين إما عن طريق البحر مباشرة وإما عن طريق البر عبر بلاد العجم ، أما عن الطريق البرى فقد تبودلت الصلات بين الطرفين عبر (جانج — آن) والعراق . وفيما بين كانتون والخليج العربى ، فسمع الصينيون كثيرًا عن العرب فيما قبل الإسلام على الأقل بقرنين من الزمان ، كما أن العرب كانوا أسبق معرفة بالصين من الصينيين أنفسهم ببلاد العرب .

أما المؤلفات الصينية فقد حفلت بذكر العرب وبلاد العرب

ونتف من تاريخ الإسلام والخلفاء الراشدين ، ومن أشهر هذه المؤلفات كتاب « چيوتانج شو » أى تانغ القديم ، وفيه فصول ضافية عن العرب . وكذلك كتاب « شنتانغ شو » أى تانغ الجديد ، وأيضاً كتاب « تونج ديان » وفيها جميعاً أخبار عن أفواج العرب القادمين إلى الصين منذ بداية النصف الأخير من القرن السابع الميلادى . . . وهكذا بدأ العرب يتعرفون على أحوال الصين . . . فى سبيل التجارة .

ومن أجل الحضارة :

لم تكن التجارة هى الحافز الوحيد للعرب على الاتصال بالصين ، فإن الحضارة العربية التى علا كعبها فى اليمن ، ورسخت قدمها فى (حِمْيَر) أو (تُبّع) ، قد أخذت طريقها إلى الصين ، فى خطى ثابتة ، عندما غزا تبع أسعد أبو كرب بألفى فارس من التبابعة ، تلك الصحارى الشاسعة التى تعرف اليوم باسم (هضبة التبت) ، حيث الهواء الطيب والخير العميم « ولا يزال الإنسان أبداً بها ضاحكاً مسروراً ولا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار ، والطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام ، وفى أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية وسميت بذلك بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمْيَر » ، فهم ثُبِّتٌ أى ثبتوا فيها ، واستطابوها مقراً ومقاماً ، وعمروها ، ووطدوا صلاتهم بمن حولهم حتى صارت (التبت)

على مر الأجيال داخلة فى نطاق الصين ، ولا يغفل العرب المؤرخون والجغرافيون ذكرها كلما ذكروا الصين ، لأنها جزء لا يتجزأ منها .

وهناك تحولت التبت من البداوة إلى الحضارة ، فقد نشر الحميريون بها ما جاءوا به من أقصى الجنوب من جزيرتهم ، وتعلم أهل التبت منهم القراءة والكتابة ، وأعدوا قسيّهم وسهامهم للدفاع عن كيانهم عند المنافذ والأبواب التى تؤدى إليهم عند (مرو) و (باب الصين) و (سمرقند) التى أولها تحريف لكلمة (شمر) أى (شمريرعش) أحد ملوك التبابعة ، وقد سميت باسمه اعتزازًا بأمجاد الأبوة والأجداد ، وفى هذا يقول دعبل الخزاعى من أبيات مشهورة مفاخرًا بالحميريين المهاجرين إلى التبت :

وهم كتبوا الكتاب (بباب مرو)
و (باب الصين) كانوا الكاتبينا
وهم سمّوا السهام (بسمرقند)
وهم غرسوا هناك (التُّبَّتينا)
وفى صنم المغارب فوق رمل
يسيل بلونه سيل السنينا

« وكانوا يسمون ملوكهم (أى فى التبت) تبّعًا لإتباع اسم تبع ملك اليمن ثم تغيرت لغاتهم عن الحميرية » كما يقول المسعودى .

وإذا نحن تابعنا هؤلاء المهاجرين العرب إلى التبت ، مع

المؤرخين ، وجدناهم فى مطلع القرن الرابع الهجرى على فريقين : أحدهما لم تمتد إليه الدعوة الإسلامية فظل حتى ذلك التاريخ على عبادته الأولى التى جاء بها من اليمن ، والآخر بلغته من الدعوة ومضات خاطفة ، لم تسلم من الشرك والوثنية . . . وفى كلا الحالين كان نظام الفريقين لا يزال قبلياً .

فهذا أبو دلف مسعر بن مهلهل الينبعى المتوفى سنة ٣٣١هـ وعضو بعثة أمير خراسان نصر بن أحمد السامانى يحكى لنا عن رؤية مبعوثى (قالين بن الشخير) ملك الصين إلى هذا الأمير وقد بعثهم يخطبون ابنة الأمير المسلم لابن ملك الصين . . . فلم يقبل لأن الشريعة تمنع زواج مسلمة بكافر ، وإذ أصر على ذلك طلبوا منه أن يسعوا فى زواج ابنه من إحدى بنات ملك الصين فرضى ، وخرج الوفد فى ذلك، ومعهم أبو دلف الذى وصف لنا أحوال كل القبائل التى مر بها فى طريقه ، حتى وصل إلى قبيلة (البغراج) فوجد « لهم أسبلة بغير لحى ، يعملون بالسلاح ولهم ملك عظيم يقول إنه علوى من ولد يحيى بن زيد » ووجد عنده أبو دلف مصحفاً مذهباً على ظهره أبيات من الشعر فى رثاء زيد .

وأدرك أبو دلف أنهم يعبدون ذلك المصحف ، وأنهم يقولون : « زيد ملك العرب » و « على بن أبى طالب « إله العرب » وأن الحكم وراثة فى العلويين من ذرية زيد . وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم شاخصين إليها بأبصارهم . وبزعمهم

أن « إله العرب » ينزل منها ويصعد إليها ، وملوك الزيدية عندهم ذوو أنوف قائمة ، وعيون واسعة ، يعيشون على الدخن ويأكلون لحوم الضأن الخراف دون النعاج .

وهناك نقول : أليس فى وجود الزيدية بالتبت ، دليل على انتقال موجة من مهاجرى اليمن — وهى موطن الزيدية — إلى تخوم الصين ، حيث استقر آباؤهم القدامى من حمير منذ خمسة قرون على الأقل ؟

ويمضى أبو دلف فى وصف القبائل التى ينزل بها حتى يحدثنا عن « قبيلة تبت » ولهم مدينة من القصب ، وفيها مسلمون ونصارى ومجوس ، ويؤدون الجزية للملك الزيدية العلوى البغراجى ، ونظام الحكم عندهم انتخابى لا وراثى كما عند القبيلة السابقة . وعندهم سجن يودعون به المجرمين ، وصلاتهم إلى قبلة الإسلام .

وينتقل صاحبنا حتى يصل إلى موضع يقال له « القليب » وفيه قبائل بدوية عربية فيقول : « فيه بوادى عرب ممن تخلف عن "تبع" لما غزا بلاد الصين . . . يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يعبدون الأصنام . . . » والملك فيهم وراثى فى الأسرة الحاكمة ، ولهم أحكام وقوانين تنظم حياتهم الاجتماعية ، والزنا حرام عندهم ، ولهم مشروب يصنعونه من التمر ، « وملكهم يهادى ملك الصين » .

تلك هى الحضارة العربية الأصيلة الوافدة من اليمن على أيدى التبابعة وقد استقرت فى (التبت) ، ولم تعد معالمها تخفى

أمام المؤرخين حتى القرن الرابع الهجرى . فسجلوا هذه المعالم من جميع الأوجه : الأصل . اللغة . الثقافة . المأكل . والملبس والمشرب . المسكن . الدين . القانون . نظام الحكم . حتى الأمور التى ربما لا تخطر ببال أحد ، وهى من الأهمية بمكان عند علماء الحضارة ، مثل المصايف والمشاتى ، فقد حرص أبو دلف على ذكرها حين يقول : « لهم مصايف ومشاتى فى مياه ورمال » .

وتلك هى بعض مشاهدات رحالة عربى ، ومندوب رسمى فى بعثة المصاهرة التى تمت بين أسرة مالكة مسلمة من خراسان وبين أسرة مالكة غير مسلمة من الصين ، حدثنا عنها على هذا النحو المستفيض . وهو فى طريقه إلى الصين ، ولم نر فيما كتبه عن مختلف القبائل التى مر بها ونزل فيها أقوى دلالة ، وأفصح تعبيراً عن الحضارة مما قاله عن تلك البقية الحميرية التى استقرت على هضبة التبت مجاورة للصين . . . ثم صارت مع الزمن جزءاً من كيانها العام ، إلى وقتنا هذا .

وكان لا بد أن تندمج التبت فى الصين يوماً من الأيام ، لعدم وجود ما يمنع من ذلك ، فقد كان الطريق ممهداً بينهما ، و « الباب » يوصل القبائل من هنا إلى هناك . . . من غير انقطاع . . . حتى لقد أصبح هذا الباب اسم بلد فى الرمل بين هذه الهضبة وتلك ، يقيم فيه رجال الحدود الصينية ، « ومنه يستأذن لمن يريد دخول الصين من قبائل الترك وغيرهم » كما يقول أبو دلف ، الذى يصف لنا هذا الوادى بما يستحقه

من الحسن والنزهة والجمال .

وفى القرن الثامن الهجرى نرى الدمشقى العربى (— ٧٢٧ هـ) يتابع الحضارة التبتية مستعيداً ما سبق أن ذكره المسعودى المؤرخ ودعبل الشاعر . ثم يقول بعدهما عن أهل التبت « وهم حضر وبدو ، ولغتهم : التركية ، وكانوا أولا يسمون من يملكهم[1] "تبع" فصاروا يسمونه "خاقان" وناحيتهم بين الترك والهند والصين » وهم أشبه بالعرب فى الألوان والخلق من سائر الأمم .

حضارة الصين :

ترجع الحضارة الصينية إلى أحقاب سحيقة تمتد إلى عصور ما قبل التاريخ . . . ويرمزون إليها بقولهم « سان خونغ وتى » ومعناها ثلاثة ملوك وخمسة سلاطين . أما أول الملوك الثلاثة فهو (صوى تشين) الذى عاش قبل التاريخ وينسبون إليه اكتشاف عنصر النار بنظره إلى النجوم . وعاش الثانى (فوهى) من سنة ٢٨٥٢ق . م . حتى سنة ٢٧٣٨ ق . م . وقالوا إنه منظم علم التقويم ، وأكبر رجال الثقافة الصينية ، فقد شرع نظام الزواج . وابتكر لأهل الصين ما يأكلون وما يشربون ، وابتكر لهم آلاتهم الموسيقية ، وغرس أشجار التوت ، وعلمهم صناعة الحرير ، واستأنس الحيوانات الضارية . كما أنه أول من عرف عبادة الإله . وعاش بعده الملك (شين نونغ) فيما

---

(١) نخبة الدهر .

بين سنة ٢٧٣٧ ق . م . وسنة ٢٧٠٥ ق . م . وقالوا إنه اخترع الآلات الزراعية ، واستخرج خواص النباتات الطبية .

وبموت (شين نونغ) انتهى عصر الملوك الأولين ، فورثه خمسة سلاطين ضعاف وصارت البلاد فى عهودهم مطمع الغزاة الطامعين من القبائل الهمجية . . . فصدهم أول سلاطنيهم وهو (خوانغ تى) ومدته من سنة ٢٦٩٧ ق . م . إلى سنة ٢٥٩٧ ق . م . ويقال إنه حين ضل الطريق وهو فى ميدان القتال اخترع الإبرة المغناطيسية فنجا من الهلاك وانتصر على العدو . وفى عهده تعلم أهل الصين غزل الحرير واستكثروا من زراعة التوت وتربية دودة القز .

وتوالى بعده على الترتيب : (جوانغ صو) و (تى كو) و (ياو) و (شون) ، وقد حظى الأخيران من (كونفو شيوس) حكيم الصين بالتقديس . . . فجعلهما مثال الفضيلة والحكمة ، واعتبر عصرهما العصر الذهبى للصين .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد أطلق اسم (الصين) على هذه البلاد التى جمع شملها ووحد قبائلها (إينج تسنج) أحد ملوك أسرة تسين (٢٤٦ — ٢٠٧ ق . م) وفى عهدها أقيم السد الأعظم المعروف بسور الصين العظيم وهو إحدى عجائب الدنيا ، دعت إلى إنشائه ظروف العدوان الذى شنته على البلاد قبائل الهون عدة مرات على الحدود ، فصدتهم جيوش (شى خوانغ تى) .

وقد لمس العالم آثار الحضارة الصينية خلال ثلاثة قرون

هى عصر أسرة (تانغ) أى الفترة الواقعة بين سنة ٦١٨ ميلادية وسنة ٩٠٥ م . حيث انتقلت صناعة الورق والبارود ــ كما يقول محمد تواضع فى كتابه « الصين والإسلام » ــ إلى أوربا ، عن طريق العرب . ثم إلى شمال أفريقيا وإسبانيا . عقب موقعه (تالاس) التى دارت رحاها بين الصين والعرب سنة ٧٥١ م .

وفى هذه الفترة شق أهل الصين عدداً من القنوات والترع فى طول البلاد وعرضها ، فيسرت بذلك نقل البضائع من فارس والعراق والشام وسائر الأقطار المغربية إلى الصين ، فكانت ترسو المراكب والقوافل على ميناء (خانفو) أو (كانتون) ، وبها ظهرت أول جالية للتجار العرب قبل غيرهم من التجار ، وكان لهم بها قاض يفصل بينهم فيما أشكل عليهم من أمور دينهم وأقاموا مسجداً لا يزال معروفاً بها إلى اليوم ويسمى (خواى تشينغ) ومعناه : الشوق إلى النبي .

من هذا يتبين أن حضارة الصين قد لفتت أنظار العالم إليها ، فصارت مطمعاً للدول المجاورة لها ، ففى عصر أسرة (يوان) التى تنحصر مدتها فيما بين سنة ١٢٧٧ وسنة ١٣٦٧ ميلادية ، قدم (جنكيزخان) من شمال منغوليا ، واجتاح بعسكره الولايات الشمالية من بلاد الصين ، وفى أيام (قبلاى خان) حفيده ، تحولت العاصمة من (نانكين) إلى (كاشغر ــ پيكين) . وقد جعل المغول شرطين لتولى أهل الصين الأصليين الوظائف . هما : معرفة لغة المغول ، واعتناق دين الإسلام . لهذا نجد

ثمانى ولايات من اثنتى عشرة يحكمها ولاة مسلمون .

وفى هذا العهد قدم إلى الصين مغامر من البندقية هو (ماركو پولو) ومعه أبوه وعمه ، وقد رحب به (قبلاى خان) وحمله رسالة إلى البابا وزوّده بالتحف والطرائف . . . التى شجعته بعد العودة إلى بلاده على استئناف الرحلة إلى الصين والمقام بها نحو سبعة عشر عاماً — ومن العجيب أن ربان سفينته ودليل رحلته كان رجلا عربيًّا اسمه أبو ماجد .

ولن ينسى التاريخ موقف الصين من الأفيون سنة ١٨٣٩ حينما أحرقت منه اثنين وعشرين ألف صندوق ؛ لأن هذا المخدر الفتاك وارد إليها من أوربا ، فشبت نار الحرب بين الصين وإنجلترا ، وانتهت بإرغام الصين على دفع ثمنه ، وفرضت عليها أيضًا غرامة تفوق ثمنه أضعافًا مضاعفة . . . مع التنازل لإنجلترا عن جزيرة (هونج كونج) .

وتحالفت الدول الاستعمارية ضد الصين عندما طردت سنة ١٩٠٠ جميع الأجانب من البلاد التى بدأت تضطرم بالثورة منذ ذلك الحين . . . ومنذئذ والصين — فى خضم السياسة العالمية — أشبه بسفينة نوح . . . وهى تجرى بأهلها فى موج كالجبال . . . وتمضى قدماً نحو أهدافها التى رسمتها لنفسها . . . حاملة معها تجارب ناضجة . . . ووصايا حكيمة . . . ما تزال تنحدر عبر القرون من أيام حكيم الصين (كونفوشيوس) .

والآن تبلغ مساحة الصين ثلاثة ملايين ونصف مليون ميل مربع ويبلغ عدد سكانها اليوم أكثر من ستمائة مليون نسمة — يغلب عليهم العنصر المغولى — وفيهم من المسلمين نحو عشرين مليونـًا ، إذ يوجد هناك من الأديان : الإسلام والوثنية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية ، ونظرًا لاتساع رقعتها التى تضم ربع سكان العالم ، تعددت فيها اللغات والأديان والعادات والأجناس .

وتتكون بلاد الصين حاليـًّا من هضبة منغوليا شمالا ، والسلاسل الجبلية المحيطة بهضبة التبت جنوبـًا ، وتشمل الصين الأصلية البلاد الواقعة إلى الجنوب من سور الصين (الذى أقامه ملوك الصين سنة ٢٠٠ ق . م . تقريبـًا لحماية حدود البلاد من الشمال الغربى لصد غارات رعاة الخيول أى سكان منغوليا) وتتكون من ثمانى عشرة مقاطعة ، وتضم الصين الأصلية ، نحو ٩٠٪ من سكان الصين ، والباقى فى المقاطعات الأربع . . الواقعة على الحدود . . وهى : منشوريا ومنغوليا وسينكيانج والتبت . . وأكثر المسلمين فى هاتين الأخيرتين ، واللغات السائدة هناك هى : المنغولية والصينية التبتية والتركية .

وتشتهر الصين بالأرز والقمح والذرة والشاى والقطن والحرير والفحم والحديد والقصدير والبترول ، والدارصينى والعقاقير والدجاج والإوز والفواكه ما عدا بلح النخيل .

وتعتبر ثورة الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ نقطة تحول جديد فى تاريخ الصين من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،

ويوجد فى جنوبى شرقى آسيا نحو ١٥ مليون نسمة من أصل صينى ، ولكنهم ينتمون سياسيًّا إلى دول أخرى .

حملة من اليمن :

يقسم المؤرخون تاريخ اليمن فيما قبل الإسلام إلى ثلاثة عصور :

١ — من بدء الخليقة إلى تبَّع أبى كرب .
٢ — من أبى كرب إلى ذى نواس .
٣ — من ذى نواس إلى ظهور الإسلام .

وقد ورثت الدولة الحميرية مدنية زاخرة عن سابقتيها سبأ ومعين فى جنوب الجزيرة ، وتميزت هذه الدولة بفتوحاتها ومغامرات ملوكها ، وانفرد العرب بتسجيل مآثرها . وحدد مؤرخو الإفرنج فترة هذه الدولة فيما بين سنة ١١٥ ق . م و سنة ٥٢٥ م واشتهر من ملوكها (شمريرعش) الذى وطئ أرض العجم وفارس وخراسان وخرب مدينة الصغد وراء جيحون . وبنى المدينة التى عرفت باسمه فيما بعد ، ثم أصابها التحريف وهى (سمرقند) . وكانت وفاته سنة ٣٠٠ م .

ويقال إنه كان يطلق عليه (ذو المغازى) لأنه فى إحدى الروايات سار بجيش عدته ٣٠٠ ألف مقاتل غزا بهم العراق وخراسان واليمن والحيرة وفارس حتى بلغ بهم أرض الصين .

وكان لملك الصين فى ذلك العهد — كما يقول النويرى —

وزير شديد البأس عالى الهمة ، اتفق مع الملك على خداع ملك اليمن القادم لغزو بلاده ، وتظاهر له بالشكوى من مولاه . وأظهر استعداده لخدمة جيش اليمن ، وإرشاد الغزاة إلى مسالك الصين ، ففرحوا به ، وسار وساروا خلفه ، فما لبثوا أن أدركوا أنهم وقعوا فى كمين أعده لهم وزير الصين إذ انتهى بهم إلى أرض سبخة أشبه بالفلوات السحيقة ، فأجهدهم السير ، واستبد بهم العطش حتى ماتوا ، وبهذا نجت بلاد الصين من غائلة الغزو .

وفى رواية أخرى أن الملك أسعد أبا كرب (٣٨٥ — ٤٢٠م) قد غزا أذربيجان وهزم الترك ، وهادنه ملوك الهند ، وبعث ولديه للغزو . فذهب (حسان) إلى الصغد ، ومضى (يعفر) إلى الروم ، وكان حسان قد استمر فى زحفه حتى وصل إلى بلاد الصين . وهناك وافاه أخوه فرجعا منها بالغنائم والأسرى ، كما أن يعفر قد ذهب إلى غزو القسطنطينية فعاد منها بالجزية ثم حاصر روما ، ورجع إلى اليمن تاركاً بالصين قوماً من التبابعة (الحميريين) الذين استوطنوها وتناسلوا فيها .

وعند المسعودى أن كليكرب بن تبع المعروف بالأقرن هو الذى تقدم زاحفاً نحو خراسان والصغد والصين ، كما أن البكرى — وهو[1] من أهل القرن الرابع الهجرى يحدثنا عن جزيرة « أدال » فى الخليج العربى « وفيها بنو معن وكثير من العرب » .

---

(١) « الممالك والمسالك » .

الصين بين العرب والعجم :

تملك النعمان بن المنذر بلاد الحيرة فيما بين سنة ٥٨٥ وسنة ٦١٣ م ، وفي بلاطه كانت تلتقي وفود العرب والصين والروم والهند ، وقد تحدث ابن عبد ربه الأندلسي في « العقد الفريد » عن قدوم النعمان على كسرى ملك العجم وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا بلادهم وملوكهم ، وجاء دور النعمان فذكر العرب وجعلهم أفضل الأمم ، غير أن كسرى أخذته عزة الملك ، فتحدث عن الروم والهنود وعرّج على الصين فذكر « اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد وأن لها ملكاً يجمعها »، ثم ذكر الترك والخزر وانتهى إلى العرب فحط من قدرهم وأساء إليهم ، فما كان من النعمان إلا أن كبح جماح غضبه ورد على كسرى وفند أقواله ، وأشاد بخصال العرب التي فضلوا بها غيرهم من الأمم ، ولا سيما حسن الوجوه ، فهم على قوله : خير من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة .

أليس في هذه المجالس ما يدل على أن العرب كانوا على إلمام بالشعوب النائية عنهم ولا سيما الصين في عصر ما قبل الإسلام ؟! وسواء كان هذا الإلمام عن طريق المشاهدة أم الرواية ، فإن العرب لم يكونوا بمعزل عن العالم ، بل توفرت لديهم فرص الالتقاء بوفود هذه الشعوب ، فتعارفوا ولم يعد من العسير

عليهم أن يميزوا بين الهندى والصينى .

ولا شك أن موقعة القادسية سنة ٦٣٦ م كانت بداية النهاية لدولة الساسانيين ، كما أن عروش الأكاسرة قد تقوضت إلى الأبد على إثر موقعة نهاوند سنة ٦٤٢ م ، وكان يزدجرد آخر عنقود فى دولة بنى ساسان ، ففر إلى الصين مستنجداً بإمبراطورها (تانغ تائى جونغ) الذى اعتذر له ، وقد أحس بالنفوذ العربى فى زحفه نحو الشرق كأنه الطوفان الجارف .

قتيبة . . فى الصين :

وفى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) وباسم دولة بنى مروان . . وبأمر من الوليد بن عبد الملك . . تحرك القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلى ، فتقدم على رأس جيش كثيف من العرب إلى خراسان وما وراء النهر ، ثم استراح بمرو . . وأخذ يشعل حماسة جنوده . . حتى زحف بهم إلى بيكند ، ثم كاشغر ، حيث فتح بلاد الصين من الغرب ، فأخذت تتساقط بين يدى كتائبه كأوراق الخريف المدن الصينية : الصغد ، رامتين ، بخارى ، واردن ، كش . فلما دخل سمرقند ، صلى لله شاكراً ما فتح عليه ، وأمر بإقامة أول مسجد بها ، وحطم أصنامها ، وعلى الرغم من انقضاض بخارى عليه مرة بعد مرة ، إلا أنه عزز حامية بها وأنشأ بها جامع قتيبة ، وسرعان ما ترجم القرآن ، وانتشر الإسلام فى أرجاء التركستان الصينية ثم الشمال الغربى للصين .

ومضى قتيبة بجحافل جيشه حتى فتح "خوقند، فقد سلمت له بلا مقاومة . . ودخل بعدها خاشغر ، واستنجد التتار بأهل الشمال من تركستان الصينية ولكن حصونهم المنيعة فى كاشغر ويارقند وختن قد سقطت تباعاً تحت معاول العرب الفاتحين حتى وصلوا إلى (طرفان) . . متوغلين فى أرجاء الصين .

وأدرك ملك الصين مقدار الخطر المحدق بعرشه من جراء هذا الزحف الجارف ، فأرسل إلى قتيبة أن ابعث إلىّ رجلا منكم يخبرنى عنكم . . فاختار عشرة رجال أو يزيدون ، وعلى رأسهم هبيرة بن مشمرج الكلابى . . وقد حرص قتيبة على أن يكون أعضاء الوفد أحسن من فى المعسكر رجاحة عقل وبسطة جسم وفصاحة لسان وشدة بأس ، وأمدهم بعدة وافرة من السلاح واللباس والعطر وأركبهم أحسن الجياد عنده ، فلما تأهبوا للوفادة على ملك الصين ، سأل رئيس وفده قائلا : يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ قال : أصلحك الله ، قل ما شئت أقله . قال قتيبة : سيروا على بركة الله ، وبالله التوفيق ، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم على ملك الصين ، فأعلموه أنى قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكهم ، وأجبى خراجهم .

ومثل وفد قتيبة بين يدى ملك الصين ، وهم فى ثياب بيضاء ، تحتها الغلائل ، والطيب يفوح منها ، وفى أرجلهم نعال من جلود ، ودخلوا على الملك وحوله عظماء البلاد ، فجلسوا ،

ولما لم يوجه إليهم الملك كلاماً نهضوا وانصرفوا ، وانفرد الملك بمن حوله وسألهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوماً ما هم إلا نساء ، ما بقى منا أحد حين رآهم إلا وجد رائحتهم .

فلما كان الغد ، استدعاهم الملك فلبسوا الوشى وعمائم الخز ، ثم دخلوا عليه وخرجوا . . لم ينبسوا ببنت شفة . . وسأل الملك أصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى .

وفى اليوم الثالث أرسل الملك إليهم فجاءوا فى السلاح . . وقد لبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف ، واختصروا الرماح ، وتنكبوا القسى واعتلوا صهوات الخيل المطهمة . . وأقبلوا كالجبال حتى دنوا فركزوا رماحهم وشمروا ، وعيونهم تقدح بالشرر كأنها عيون الأفاعى . . ولم يكادوا يطأون الباب حتى داخل الملك وأصحابه فزع وهلع ، وقذف الله الرعب فى قلبه . . وأمرهم بالانصراف . . فانصرفوا وهم يتطاردون بالخيل . . والتفت الملك إلى رجاله يسألهم الرأى فيما رأوا ، فقالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط .

وانتهى الرأى إلى استدعاء أميرهم وكبيرهم ، فجاء هبيرة . . فقال له الملك حين دخل عليه : لقد رأيتم ملكى العظيم ، وعلمتم أنه ليس أحد يمكنكم منى وأنتم فى بلادى ، وإنما أنتم بمنزلة البيضة فى كفى . . وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقنى قتلتكم . قال : سل . فقال : لم صنعتم ما صنعتم من الزى فى اليوم الأول والثانى والثالث ؟ . . قال : أما زينا الأول فلباسنا

فى أهلينا وريحنا عندهم ، وأما يومنا الثانى فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فتزينا لعدونا ، فإذا هاجنا هيج وفزع كنا هكذا . فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم . . فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه . . وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك ، وآخرها فى منابت الزيتون ؟ ! (. . إحدى مدن الصين وقد ذكرها ابن بطوطة فى رحلته) . . . وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ ! وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية .

وارتاع الملك من هذه اللهجة القوية ، فرجع عن التهديد والوعيد ، وفكر ملياً ثم قال : نحن نخرجه من يمينه ، ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ، وبعض أبنائنا فيختمهم ونعطيه الجزية التى يرضاها .

وأمر فجىء بالتحف والطرف فقدمها إلى هبيرة . . فلان جانبه وجنح إلى السلم ، وكتب إلى قتيبة بما جرى . . وأنه قبل عروض الجانب الصينى ورضى له أن يتحلل من اليمين التى أقسمها . وفى هذا يقول سواد بن عبد الملك السلولى يخاطب قتيبة ، ويشجعه على ما فعل :

لا عيب فى الوفد الذين بعثهم
للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى
حاشا الكريم (هبيرة بن مشمرج)
أدى رسالتك التى استدعيته
فأتاك من حنث اليمين بمخرج
لم يرض غير الختم فى أعناقهم
ورهائن دفعت بحمل سمرّج

وأوفد قتيبة رجله الشجاع هبيرة إلى الوليد بن عبد الملك فمات فى الطريق ولم يصل ، فرثاه سواد بأبيات منها :

لله درّ (هبيرة بن مشمرج)
ماذا تضمن من ندى وجمال

وبويع سليمان بن عبد الملك بالخلافة ، وهو الذى أهلك القائد الشاب محمد بن القاسم فاتح السند ونكل به أيما نكال ، ثم قلب لقتيبة ظهر المجن فعزله واستأمر على جيشه وكيعاً ، فتقاتلا حتى جرح قتيبة ، وقتل ومعه الكثير من أهل بيته ، فانشقت عصا الفاتحين الغزاة ، وضعفت فتوح العرب ، ووهنت عزائمهم عن المضى نحو المشرق الأقصى ، وانطفأت جذوة حماسة الجنود ، وانحسرت هذه الموجة عن بلاد الصين . . ولكن آثارها لم تزل منذئذ باقية . .

« تالاس » :

على الرغم من مقتل البطل الفاتح قتيبة بن مسلم ، ظلت الولايات التي فتحها فى قبضة العرب ، فوطدوا بها حكمهم ، مما شجع التتار فيما بعد على التوغل فى قلب الصين .

وعندما طمع أهل الصين فى استرداد إحدى الولايات وهى شاش ، استنجد أحد أمراء الصين — بعد مصرع والده — بأبى مسلم الخراسانى ، فأرسل زياد بن صالح الذى أخمد ثورة شريك بن المهدى ، وهناك فى معركة (تالاس) الفاصلة سنة ٧٥١ م ، لقى العرب من الظفر على الصين ، ما جعلهم فى هذه البلاد أقوى نفوذاً وأشد مراساً من ذى قبل .

وقد كان من ثمار هذه الموقعة المشهورة ، والتى ذكرها الثعالبى فى « لطائف المعارف » — نقلا ورواية عن الجوينى فى « المسالك والممالك » — أن العرب قد أسروا من الصين عدداً كبيراً . كان من بينهم عمال مهرة فى صناعة الورق . . فتعلموها منهم . . وما لبثوا أن نشروا هذه الصناعة وأذاعوها فى سائر البلاد العربية .

وتلت هذه الموقعة فترات انقضاض . . حاول فيها الولاة الأتراك أن يخرجوا من قبضة العرب . . واستعانوا بأباطرة الصين . ولكن هؤلاء كانوا من الحكمة والسياسة بحيث خافوا على عروشهم من سطوة العرب ... ولا سيما بعد أن جربوا حظهم فى موقعة تالاس ..

وعلى العكس حفظ العرب لأباطرة الصين هذا الجميل . . فلما اجتاحت الثورات الداخلية بلادهم . . خف العرب المواطنون لنجدتهم ، وردوا للإمبراطور (سوتسنج Su-Tsung) مكانته ، وارتدت زوبعة التمرد والعصيان على أعقابها . . وظلت راية أسرة تانج الحاكمة خفاقة حتى منتصف القرن العاشر الميلادى ، بفضل النجدة العربية التى بعث بها الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور سنة ٧٥٧ م وكان قوامها عشرين ألف مقاتل . . حتى لقد أشاد المؤرخ الصينى (تانج شو) فى تاريخه بهذه النجدة العربية التى قضت نهائيا على الفتن الداخلية سنة ٧٥٧ م . . وأشار إليها أيضاً (بريتشنايدر) فى كتابه المعروف عن أقدم صلات الصين بالعرب . .

فما كان من الإمبراطور إلا أن أجزل الثواب للعرب ، ومنحهم الاستقلال فى الولايات التى ارتضوها . . نظراً لتزايد نسبتهم العددية فيها ، وما لبث العرب أن ازدادوا فى الصين نفوذاً ، وإلى قلوب الأباطرة محبة وقرباً . . فقد طابت لهم الإقامة فى (كنتون) . . وانضموا إلى المستوطنين بها من تجار العرب . . وتزوجوا مثلهم من نساء الصين . . وتناسلوا ، فكان منهم جيل جديد أطول قامة وأشد قوة ، وأقرب إلى السمرة منه إلى الصفرة .

الفصل الثانى

الإسلام والصين

من الأندلس إلى الصين :

تتفق مصادر التاريخ الإسلامى كلها على انتشار الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية . . بحيث لا نجد صعوبة فى معرفة بداية ظهور هذا الدين الجديد فى بلاد كانت خاضعة للأكاسرة أو القياصرة ، ومن ثمة انتقل إلى ما يليها من البلاد ، فصار هذا الأمر حقيقة ثابتة لا تقبل التزييف أو التحريف ، لهذا لا سبيل إلى إنكار أن القرن الأول من الهجرة لم يكد ينقضى حتى بسط الإسلام جناحيه أحدهما إلى الشرق فبلغ الصين ، والآخر إلى الغرب فبلغ الأندلس ، وذلك فى عصر بنى أمية ، وفى خلافة الوليد بن عبد الله وسليمان بن عبد الملك من بعده ففتح طارق بن زياد الأندلس سنة ٧١١ م ، ودخل قتيبة بن مسلم بلاد الصين سنة ٧١٥ م وذلك بعد أن استقر الإسلام فى البلاد التى دون كل منهما تدريجيًا .

وعلى الرغم من هذا التوافق الزمنى ، فإن بدء دخول الإسلام إلى الصين لا يزال تكتنفه طبقات كثيفة من الغموض ، مما أدى إلى خلافات بين المؤرخين ، على عكس إجماعهم – فيما يتعلق بفتح الأندلس – على حقائق موحدة . .

ثم إن الأمر بالنسبة للصين قد اتسم بالأساطير على نحو تكاد معه حقائق التاريخ أن تفلت من بين أصابع المدقق المحقق.. ويرجع ذلك إلى ندرة مصادرنا عن هذا الجانب بالذات ، مع وجود مراجع صينية تؤرخ لهذه الفترة ، وتخالف فى خطوطها الرئيسية ما هو موجود بين أيدينا من المراجع .

أول مسجد فى الصين :

ويؤكد الكثير من المؤرخين أن أول مسجد أقيم خارج الجزيرة العربية ، هو المسجد الذى بناه المسلمون فى الصين . متى ؟ وأين ؟ وعلى يد من ؟ هذا ما نود أن نحاول الجواب عنه ، بشق طريق وسط الأساطير والحقائق ، حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق .

قيل إن سعد بن أبى وقاص قدم إلى الصين ومعه ثلاثة من الصحابة ومعهم أربعون رجلا ، بدعوة من أحد أباطرة أسرة (سوى) . وأطلق الصينيون على سعد بن أبى وقاص اسم وقاص بابا أو بابا الأول ، كما أطلقوا على الثلاثة الآخرين بابا الثانى ، وبابا الثالث ، وبابا الرابع . . فلما ألقوا عصا التسيار بمدينة (كانتون) شيدوا جامعاً أطلقوا عليه « جامع الذكرى » وذلك فى السنوات الأولى من حكم الإمبراطور (كاتشو) الذى يقع فيما بين سنة ٦١٨ و سنة ٦٢٧ م ؛ وأشرف على بنائه وزير صينى من أسرة (تانج Tang) . وكان يحب النبى عليه السلام

فسماه جامع الذكرى أى ذكرى النبي محمد .

وقد أحيطت هذه الرواية بنسيج أسطورى شفاف ، إذ أضيف إليها أن الملك الصينى (وين تى) رأى مناماً ، فبعث على أثره يدعو محمداً عليه السلام لزيارة الصين ، فاعتذر له النبي وبعث نيابة عنه هؤلاء الرجال وعلى رأسهم خاله سعد ابن أبى وقاص . . الذى حمل معه صورة النبي سراً ، وقدمها للملك فسُرَّ بها غاية السرور ، وعلقها على أحد جدران القصر ليسجد لها ، فمنعه من ذلك ابن أبى وقاص ، فسأله عن ذلك فقال : إن النبي منعنا من عبادة الصور والتماثيل ، وأنه لا إله إلا الله ، فأمر الملك ببناء مسجد فى (كانتون وجعل من بعض أروقته له سكنا ، وسماه جامع (خواى شينغ) أى الشوق إلى النبي ، وقيل إنه لا يزال قائماً إلى يومنا هذا .

وأقامت هذه الجماعة التى سماها أهل الصين (هوى — هوى Hui Hui[١] فى منازل فاخرة من طراز جديد بكانتون . وكانت طاعتهم لأميرهم المسلم مضرب الأمثال .

وقد تكون هذه التسمية التى أطلقها الصينيون على هذه الجماعة المسلمة تحريفاً للضمير (هو مكرراً ، كإشارة إلى عقيدة التوحيد التى هى جوهر الإسلام ، حسب نص سورة الإخلاص « قل " هو" الله أحد » . وعلى كل حال فهذه

---

(١) Devena: Mission d'Ollon.

الكلمة الصينية تبدو وكأنها ترجمة لكلمة « المسلمين » .

ويؤكد المؤرخ الصيني صاحب كتاب « أصل المسلمين فى الصين» وعنوانه ينطق بالصينية هكذا : Hui-Hui gnan lui أن الإسلام وصل إلى الصين سنة ٦٢٨ م عندما قدم العرب من قبل النبي رداً على البعثة الصينية التى جاءت لدعوته لزيارة الصين ، وكانت البعثة الإسلامية على رأسها القيس والأديس والوقاص ، مات الأول والثانى فى الطريق ، أما الوقاص فقد كتب له البقاء حتى لقى إمبراطور الصين ، وأخبره بالقرآن . . ثم عاد إلى النبي ثلاث مرات عن طريق البحر : المرة الأولى كانت من أجل الكتب الدينية ، والثانية لإحضار نسخة من القرآن واستشارة النبي فى شئون نشر الدعوة بالصين . فقال له النبي : خذ معك ما نزل من الآيات ، وأما الآيات التى سأتلقاها من الوحى ، فسأبعث بها إليك عند نزولها ، وفى المرة الثالثة جاء يزور النبي فى مرضه ، ثم عاد بعدها إلى الصين ، ومعه نسخة كاملة من القرآن الكريم ، ثم وافاه القدر المحتوم فى (كانتون) حيث مات ودفن ، فأطلق اسمه على مسجدها الأشهر .

واستناداً إلى المصادر الموثوق بصحتها ، نستطيع بكل اطمئنان أن ننفى نفياً قاطعاً وصول سعد إلى الصين ، وبهذا تتبدد جميع الخيوط الواهية التى نسجتها الخرافات حول سفره إلى الصين سواء كان مرة أم عدة مرات .

وإذا كان تاريخ الهجرة يوافق سنة ٦٢٢ م ، فهل يصدق عاقل أن الإسلام وصل إلى الصين بعد ست سنوات ، حيث كان النبي مشغولا بشئون الدعوة بالمدينة ، وقد هاجر إليها مستنصراً بأهلها ، وجمع كلمة المهاجرين والأنصار ، استعداداً للجهاد ؟ !

حقاً . . لقد بعث النبي رسله إلى الروم والحبشة ومصر ، ولكن ليس لدينا ما يثبت أنه أرسل خاله أو عمه أو ابن عمه داعية للإسلام فى الصين بالذات .

هذا وقد عثر أسقف روسى يدعى (پالاديوس Palladius) سنة ١٨٧٨ ببيكين على مرسوم صينى مترجم عن أصل عربى نشره العلامة الإنجليزى (مورجان) سنة ١٨٨٢ فى مجلة (ذى فونيكس) ، وفيه أن (ابن حمزة) عم النبي قدم الصين فى السنة السادسة من حكم الإمبراطور (تسنج كوان) بما يوافق سنة ٦٣٢ م ، ومعه نسخة من القرآن ، وفى صحبته ثلاثة آلاف جندى ، وقد سر الإمبراطور بمقدمه لحسن خلقه وتقواه ، وأبقاه مع جيشه فى العاصمة (جانج آن) ، وبنى لهم جامعاً بها .

ولما اتسع نطاق الدعوة ، أمر ببناء مسجدين آخرين ، أحدهما فى (نانكين) والآخر فى (كانتون) . . ثم أخذ ابن حمزة ينظم مع أصحابه وسائل الدعاية للدين الإسلامى فى الولايات . . وجعل منهم أئمة وخطباء ومؤذنين ، كما وضع للمسلمين تشريعاً من أربعة عشر قراراً ، لتنظيم معاملاتهم .

وما لبث فوج آخر من المهاجرين عن طريق البحر أن قدموا من بلاد العرب ، واستوطنوا إقليم «(ينان)» ، فأنشئ جامع (كانتون) سنة ١٢٤ هـ - سنة ٧٤٢ م ، ثم جامع مقبرة العطر الشذى ، وسنرى فى كتابات العرب عن هذه الفترة ، كثرة الوافدين على الصين ، وتزايد المساجد تبعاً لذلك ، ولاسيما فيما بين القرنين السابع والعاشر للهجرة ، بما يلفت الأنظار ، ويدعو إلى الدهشة .

ولعل المبالغة فى الأرقام التى وضعها الرواة عن هذه الحشود الوافدة ، تكفى سبباً لدحض هذه التصورات ، التى قد يكون الداعى إليها ، رغبة المسلمين الأولين من الصينيين فى نيل شرف السبق إلى الإسلام على أيدى كبار الصحابة ولاسيما أقارب النبى ، وربما يكون الخلط بين الأسماء ناجماً عن تحريف اسم تاجر عربى اسمه (الوقاص) إلى (سعد بن أبى وقاص) .

ويكاد ينعقد إجماع مؤرخى الصين أنفسهم على أن بلادهم عرفت الإسلام سنة ٦٥١ م أى سنة ٣٠ هـ فى الشهر الثامن من السنة الثانية لحكم (تاوتسونج) أحد ملوك أسرة (تانج) ، بينما تحكى روايات أخرى أن أول ظهور الإسلام كان فيما بين سنتى ٦١٨ و ٦٢٦ م أى مع تاريخ الهجرة أو ما حول ذلك بسنتين .

أما الباحث الأمريكى (ماسون Masn)[1] فيرى أن أول

(١) البحث عن دخول الإسلام فى الصين .

ظهور الإسلام بالصين كان سنة ٦٥١ م ، وربما قبل ذلك ، ويؤيده (فوتونج بيان) المؤرخ الصينى المسلم وجمهرة كبيرة من مؤرخى الصين .

ويقول المؤرخ الصينى (تشين يوان) إن أول وفد عربى قدم إلى الصين كان فى عهد الخليفة عثمان ، وهو الذى بعث وفداً من المسلمين لمرافقة سفير الصين لدى عودته إلى بلاده ، فلقى هذا الوفد من الإمبراطور كل تكريم .

ويؤكد المؤرخون الصينيون المعاصرون أن (مسجد الذكرى) الذى يقال إن ابن أبى وقاص قد أقامه فى (كانتون) ويسميه أهل الصين (واى شن تزى) . . لا يزال موجوداً . . وأن هناك شاهداً على قبر سعد خارج المدينة ، وعليه اسمه مكتوب بخط واضح وتاريخ بناء المسجد سنة ٧٤١ م . وأن إمام المسجد الذى كان يعمل به فيما بعد يدعى بدر الدين السوكاكى (— ٩٥٢ هـ = ١٥٤٥ م) .

هذا وقد حدثنى شخصياً الدكتور مصطفى الأمير الأستاذ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية — بعد عودته من الصين حيث كان يعمل بجامعاتها أستاذاً للدراسات المصرية القديمة — أن أول مسجد أسس خارج الجزيرة العربية كان مسجد (بيكين) وذلك سنة ٦٢٠ م ، وأن على مدخله لوحة تذكارية ، مكتوب عليها باللغة العربية أن مؤسسه (ابن وقاص) .

وورد فى بعض الكتب الصينية أن الإسلام قد بدأ ينتشر

فى أرجاء الصين من ثلاثة مراكز رئيسية هى : (كانتون) و (يانج شو) و (جوان شو) [1] حتى لقد بلغ عدد الأسر المسلمة ثلاثين ألفاً فى مدينة واحدة هى (قنجنفو Kanjanfu) ، وكان بها مساجد أربعة ، بخلاف المساجد التسعين المنتشرة فى سائر الولايات ، والتى أنشأتها حكومة الصين على نفقتها .

الأنبياء . . فى الصين :

ومما ذكره المسعودى فى « مروج الذهب » أن رجلا يدعى (ابن وهبان) [2] من بنى هبار بن الأسود خرج من البصرة إلى (سيراف) ، واجتاز ممالك الهند حتى بلغ مشارف الصين ، ثم وصل إلى ميناء (خانفو) أو (كانتون) ، وكان مقر الملك يومئذ بمدينة (حمدان) أكبر مدن الصين . والتمس ابن وهبان مقابلة الملك ، متشفعاً بقرابة من بيت النبوة ، فلقيه الملك أحسن لقاء ، وأكرم مثواه طول مدة إقامته بالصين حتى غادر البلاد إلى العراق ، وأدرك ابن وهبان أن أهل الصين يعبدون النار ويسجدون للشمس والقمر ، وكأنما عز عليه أن يرى هذه الوثنية ، فدار بينه وبين الملك حوار نورده فيما يلى موجزاً لما فيه من طرافة .

---

(١) العلاقات بين العرب والصين .

(٢) واسمه فى بعض الكتب : ابن وهب القرشى وأن زيارته للصين هذه كانت سنة ٢٥٦ هـ .

العربى : لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأنفسها وأوسعها ريعاً وأكثرها أموالا وأعقلها رجالا وأنداها صوتاً .

الملك : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟

العربى : ما لى بهم علم .

الملك : إنا نعد الملوك خمسة ، فأوسعهم ملكاً الذى يملك العراق لأنه فى وسط الدنيا ، والملوك محدقة به ، ونجد اسمه عندنا ملكاً ، وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس ، ومن بعده ملك السباع ، وهو ملك الترك الذى يلينا ، وهم سباع الإنس ، من بعده ملك الفيلة ، وهو ملك الهند ، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضاً لأن أصلها منهم ، ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ، لأنه ليس فى الأرض أتم خلقاً من رجاله ، ولا أحسن وجوهاً منهم ، فهؤلاء أعيان الملوك ، والباقون دونهم .

وهنا أمر الملك بسفط فيه كتب ، وأومأ إلى الترجمان أن يطلع ابن وهبان على كتاب منها به صور ، ثم سأله :

أتعرف صاحبك (أى النبى محمداً) إن رأيته ؟

العربى : وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل ؟

الملك : لم أرد هذا ، وإنما أردت صورته ؟

العربى : أجل .

ونظر ابن وهبان إلى الصور التى يحتويها السفط ، ثم قال : هذا نوح عليه السلام فى السفينة بمن معه ، لما أمره الله عز وجل ، فعم الماء الأرض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه .

الملك : أما نوح فصدقت فى تسميته ، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه، وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ، ولم يصل إلى أرضنا ، إن كان خبركم صحيحاً فعن هذه القطعة ، ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ، ولا نقل إلينا أسلافنا ما وصفتم ، أما ما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها ، فمن الكوائن العظام التى تفزع النفوس إلى حفظه ، وتتداوله الأمم ناقلة له .

العربى : (بعد أن رأى صورة أخرى) وهذا موسى عليه السلام وبنو إسرائيل .

الملك : نعم ، على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه .

العربى : (بعد أن اطلع على صورة ثالثة) وهذا عيسى بن مريم عليه السلام ، وهو على حماره ، والحواريون معه .

الملك : لقد كان قليل المدة .

العربى : وهذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (وقد صوروه وهو على جمل ، وأصحابه من

حوله ، فى أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل ، وفى أوساطهم حبال ، علقوا فيها المساويك . .

الملك : صدقت ، لقد ملك قومه أجلّ الممالك ، إلا أنه لم يعاين من الملك شيئاً ، إنما عاينه مَن بعده ، ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه .

وسأله الملك بعد ذلك عن الخلفاء وأزيائهم ، ثم عن الشرائع ، وعن عمر الدنيا فأجابه فرد عليه الملك بأن النبي لم يقل هذا ، ولم تختلف فى ذلك الأنبياء ، ثم سأله عن السبب فى حضوره إلى الصين .

العربى : بما حدث على (البصرة) ووقوعى إلى (سيراف) ، ونزعت بى همتى إلى ملكك أيها الملك ، لما بلغنى من استقامة ملكك ، وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك ، فأحببت الوقوع إلى هذه المملكة ومشاهدتها ، وأنا راجع عنها إلى بلادى ، وملك ابن عمى ، ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد ، وشيمك أيها الملك المحمود ، وسأقول بكل قول حسن ، وأثنى بكل جميل .

وأعجب الملك بهذا الجواب البارع ، وأمر بجهازه إلى (خانفو) ، وأوصى به صاحب الولاية ، وظل يرفل فى ثياب النعمة حتى خرج من الصين عائداً إلى بلاده .

ومن هذا يتبين أن ابن وهبان قد رحل إلى الصين من

العراق فى عصر الدولة العباسية ، يحدوه إلى الرحلة داعى النزهة والفرجة . . فى بلاد ذاع صيتها وشاع ذكرها على ألسنة الذاهبين الآيبين ، فتاقت نفسه إلى رؤيتها « وما راءٍ كمن سمعا » .

ويتبين لنا أيضاً أن فن التصوير فى الصين قد وجد مادة خصبة من حياة الأنبياء والمرسلين ومن بينهم نبى العرب ، فاحتلت تصاويرهم قصور الملوك فى الصين ، كما شاعت هذه التصاوير فى البلاط الفارسى ، وعليها مسحة من فنون الصين ، وسنرى فيما بعد ، عناية المؤرخين العرب بهذه الخصيصة الصينية ، وماذا قالوا عنها فى مؤلفاتهم .

من كونفوشيوس إلى محمد (صلعم) :

عرفت بلاد الصين منذ القدم بالعجائب والأساطير ، وسيطرت على عقول أهلها عقيدة غامضة هى عبادة الأرواح الخفية المستترة فى مظاهر الكون أرضه وسمائه ، كما تميز الشعب الصينى منذ آلاف السنين بتقديس الآباء والأجداد ، وتميزت عندهم عقيدة العامة عن عقيدة الخاصة ، وبلغ احترامهم لملوكهم حد القداسة ، والتنزيه عن الرذائل ، فعم السلام وساد العدل ، وما لبثت أن تغيرت أحوال الحاكمين والمحكومين ، فظهرت فى القرن السادس قبل الميلاد فلسفتان تهدف كل منهما إلى الكشف عن سبيل للإصلاح الاجتماعى ، فاتجه (لاوتسه) إلى الزهد فى الدنيا واحتقار شأنها ، بينما يرى (كونفوشيوس)

أن تنظيم المجتمع هو أساس كل إصلاح منشود .

وانتصرت فلسفة كونفوشيوس ، وسادت تعاليمه ومبادئه التى استمد جذورها من أعماق التراث الصينى ومن طبيعة العصر الذى عاش فيه ، وكان سلوكه الشخصى وكبحه لجماح نفسه من أسباب انتشار فلسفته بسرعة ، فوصل هو إلى المناصب الرفيعة . . حتى لقد صار حاكماً عاماً على إحدى المدن الصينية ، فانقطع بها دابر الإجرام ، وكلفه الإمبراطور بتطبيق ذلك على سائر الولايات ومكنه من ذلك بأن جعله وزيراً ، وشهدت الصين على يديه تقدماً ملحوظاً فى المجالين الأخلاقى والعمرانى على السواء .

حكم هذه شخصيته . . وهذه مبادئه وآثاره جدير بعد موته أن يحظى بالتقديس من أهل الصين منذ القرن الرابع قبل الميلاد وأن تتعمق فلسفته فى حياة الأجيال المتعاقبة عبر القرون ، وأن تكون ترجمتها العملية أن السلام هو خير وسيلة للإصلاح الاجتماعى .

ترى هل عمل المسلمون الواردون على الصين بقول نبيهم الكريم : « الإسلام يجبّ ما قبله » ؟ .. ثم ماذا كان موقفهم من الكونفوشيوسية وهم بصدد نشر تعاليم دين جديد طارئ على أرض تسودها الخرافات ؟ وبمعنى آخر : هل قام صراع بين الديانتين على أرض الصين ؟ وماذا كانت النتيجة ؟

والجواب على ذلك مستمد من حقيقة العلاقات الوثيقة التى

توثقت عراها بين الصين والعرب قبل الإسلام ، فقد رأينا كيف كانت التجارة البرية والبحرية أول عوامل الربط بين الأمتين ، ومن طبيعة التاجر إيثار السلام، والتماس الطريق إليه . . صوناً للأرواح من الهلاك ، وحماية للأموال من الضياع .

فإذا كان هذا شأن التاجر العربى الذى يتعامل مع أى بلد أجنبي فإنه أحوج إلى هذه المعاملة مع الصين بعد اعتناق دين الإسلام ، لهذا نجد ظاهرة انتشار هذا الدين فى هذه البلاد تأخذ طابعاً خاصاً هى أنه لم ينتشر باستعمال السيف ، وإنما بالتعايش السلمى ، من حيث العقيدة والسلوك ، وبهذا شاع وذاع ، والأدلة التاريخية على ذلك شاهدة .

فقد ذكر كل من (بروموهال) و (ڤاسيليف) تفاصيل السياسة التى اتبعها المسلمون فى الصين ، حتى لا يظهر دينهم متعارضاً مع دين الدولة ، فنجحوا — كما يقول (أرنولد) — فى تجنب الكراهية التى كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية كاليهودية والمسيحية ، بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كونفوشيوس ، مع فارق واحد هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم فى الزواج والجنازات وغسل الأيدى قبل وجبات الطعام ، وتحريم الخنزير والخمر والدخان ولعب الميسر ، كما أن مؤلفات المسلمين الصينية كانت تمجد كتب كونفوشيوس وغيرها من الكتب الداعية إلى الفضائل ، وتشير إلى ما بين تعاليم

الإسلام وفلسفات الصين من تقارب وتشابه .

كان المسلمون حريصين على تجنب العنف فى بث دعوتهم ، حريصين على أن تكون تصرفاتهم الاجتماعية خير دعاية للدين الذى جاءوا به ، فلم يتظاهروا بما يخالف المألوف ، حتى لا يتأذى منهم جيرانهم — فى الأحياء من القرى والمدن — الذين على غير دينهم ، ولم يشعلوا نيران التعصب التى من شأنها خلق المشاكل والفتن والمذابح الأهلية ، بل اندمجوا فى المجتمع الصينى وارتدوا الثياب القومية ، وأطالوا ضفائر شعورهم ، وبنوا مساجدهم على النمط الصينى ، ولم يلبسوا عمائمهم إلا عند الصلاة بالمسجد ، إيماناً منهم بأن الله لا ينظر إلى صورهم ، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم ، وأن التقوى فى القلب ولا تظهر حقيقتها إلا فى الأعمال. « وإنما الأعمال بالنيات » .

وفضلا عن ذلك كانوا يسجدون أمام لوحة الإمبراطور الموجودة فى كل مسجد ، كما تقضى بذلك الأوامر ، وكان كبار موظفى الدولة من المسلمين لا يتورعون عن إقامة الطقوس الوثنية المفروضة عليهم أيام العطلة والأعياد كمظهر ولاء يجب عليهم أداؤه نحو الإمبراطور ، وما كان المسلم الصينى ليجد أى غضاضة فى الظهور بملابسه الوطنية وهو يصلى لكونفوشيوس فى المعابد الوثنية .

وباتباع هذه السياسة الحكيمة استطاع المسلمون أن يعيشوا فى وئام وسلام فى ظل الوثنية الصينية ، وأغلب الظن أن وصايا

كونفوشيوس الاجتماعية كانت مهد السلام الذى تربّت الدعوة الإسلامية فيه ، فنمت وترعرعت ، وتمكن المؤمنون بها أن يتجنبوا كل تحرش واحتكاك بمواطنيهم المخالفين لهم ، فقلما اندلعت ألسنة الفتنة الداخلية ، وقلما كان للمسلمين فيها باع أو ذراع .

وعلى هذا النهج سارت الدعوة الإسلامية فى الصين عبر القرون والأجيال ، وبلغت من النجاح إلى الحد الذى جعل الكاتب الروسى ڤاسيليف فى القرن الماضى يتنبأ بأن الدين الإسلامى يوشك أن يصبح الدين القومى للإمبراطورية الصينية وأن يقلب — تبعاً لذلك — جميع الأوضاع السياسية فى الشرق رأساً على عقب .

ويحدثنا المؤرخون أن أباطرة الصين كانوا يعطفون على المسلمين عطف الآباء على الأبناء ، ويثقون فى ولائهم بما لا يوصف ، فبادلوهم حبًّا بحب وتقديراً بتقدير ، وطالما دبر الحاقدون مؤامرات ضد المسلمين لدى البلاط الصينى فباءت جميعها بالفشل ، وما زادت الأباطرة إلا تقريباً للمسلمين ووضعهم فى أجل المناصب وأهمها فى الدولة مدنية وعسكرية ، وبرهنوا على أنهم مواطنون صالحون فى كافة أعمالهم الأهلية والحكومية ، فقد استطاعوا التكيف بالبيئة الصينية ، وكانوا — كما وصفهم بعض الأباطرة — مواطنين مخلصين يعرفون ما لهم وما عليهم .

وفضلا عن هذا ، حظى المسلمون فى الصين بامتيازات

لم يحظ بها غيرهم من الأجانب – وإن كانوا لا يعتبرون عن الصين أجانب – فأعفاهم الأباطرة من الضرائب ، بالرغم من كثرة عددهم ، وتمتعوا بكامل الحرية الدينية ، وأغدقوا عليهم الأموال ، ومنحوهم الأراضى الشاسعة ليزرعوا ما يشاءون ، ويعمروها كما يشاءون .

وكثيراً ما كانت المجاعات تجتاح بلاد الصين ، فيضطر الآباء إلى بيع أولادهم فى الأسواق ، فكان المسلمون أول من يسارع إلى شرائهم بالآلاف . فيربونهم على الإسلام منذ نعومة أظفارهم ، ويعاملونهم معاملة الأبناء . حتى إذا كبروا أصبحوا وقد تمرسوا بالحياة العملية ، وانتشروا فى الأرض أحراراً ، ولم يعودوا عبيداً أرقاء .

حدث هذا مراراً منذ القرن الثامن عشر ، وحدث مثله سنة ١٩٠٠م عندما لقى المسيحيون حتوفهم على أيدى طائفة « المصارعين » فى الصين ، وباع المسيحيون أبناءهم ، فلم يجدوا من يشتريهم غير المسلمين ، الذين كان دافعهم الأساسى لهذا العمل إنسانياً خالصاً .

ولا عجب إذا كان ذلك من أهم العوامل التى جعلت عدد المسلمين فى الصين يتكاثر باستمرار ، خصوصاً بعد أن توغل العنصر العربى فى المجتمع الصينى وتزوج من الصينيات ، فكثر النسل وسلمت السلالات الجديدة من العلل والأمراض الخبيثة الناجمة عن تعاطى المخدرات ، وارتكاب الفواحش .

ويجب ألا ننسى أن العنصر العربى المسلم فى الصين قد وجد عناصر أخرى تزيد من قوة وجوده ، واستمرار بقائه ، إذ التقى معهم على صعيد الصين مسلمون آخرون من أجناس أخرى مجاورة ، وإن كانت لا تصل إلى أهمية العنصر العربى الوافد والمقيم . . من حيث الإندماج فى المجتمع الفضفاض وتجديد نسيجه بالحضارة الإسلامية . وتغلغلها فى الحياة العامة.

ملوك . . وملوك :

بين ملوك الصين ، وملوك العرب . . . علاقات قديمة ، معروفة فى كتب التاريخ عند مؤرخى الصين والعرب على السواء ، وفى طليعة المؤرخين العرب المسعودى الذى يرجع فى تاريخ هذه العلاقات إلى أحد ملوك التبابعة وهو (أسعد أبو كرب) الذى ملك الموصل وأذربيجان ، وانتصر على الترك ثلاث مرات ، ثم بعث ثلاثة من أولاده للغزو ، واجتياح بلاد الفرس ، وبلاد الصغد (من بلاد أمم الترك وراء النهر) ، وبلاد الروم . أما الأول فملك بلاد الصغد حتى (سمرقند) العاصمة ، وقطع المفاوز حتى وصل إلى الصين ، فوجد أخاه قد سبقه إليها ، فتوغلت جيوشهما معاً فى بلاد الصين ، ورجعا بالغنائم والأسلاب بعد أن تركا ببلاد الصين قبائل من (حمير) فهم بها حتى القرن الرابع الهجرى .

تلك هى أقدم علاقة بين ملوك العرب والصين ، فيما كتبه

مؤرخونا . . ومما وقعت حوادثه منذ أكثر من ستة عشر قرناً من الزمان :

وفى القرن الأول من تاريخ الهجرة ، وعلى وجه التحديد سنة ٩٦هـ ، أرسل الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى قائده المغوار قتيبة بن مسلم والى خراسان . . إلى الصين ، فلما أثخن فيها ، وأحس ملك الصين بقرب انهيار عرشه ، طلب الصلح ، فأوفد قتيبة إليه هبيرة بن مشمرج ، فجنح الفاتح العربى المسلم إلى السلم ، ولقى الإسلام والمسلمون منذ ذلك الوقت من ملوك الصين كل تكريم وتقدير .

وفى سنة ١٠٨ هـ أوفد هشام بن عبد الملك من قبله سليمان رسولا إلى إمبراطور الصين (هسوان تسونج) ، وفى سنة ١٣٩هـ استنجد ابنه (سوتسونج) بالخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، ليسترد به سلطانه المسلوب من أيدى الثوار ، فكان له ما أراد ، واستقر المسلمون بعد النصر الذى أحرزوه ببلاد الصين ، وتزوجوا من بناتها وطابت لهم الإقامة بها .

وفى القرن الرابع الهجرى ، توثقت الروابط بين العرب والصين عن طريق المصاهرة إذ أوفد الأمير المسلم نصر بن أحمد السامانى من قبله رسولا إلى فالين بن الشخير ملك الصين يخطب ابنته لابنه الأمير نوح ، فقبل أبوها وجهزها وأرسلها إلى خراسان ومعها مائتان من الخدم وثلثمائة من الجوارى والخصيان ، وتزوج

منها نوح[١] .

وفى مطلع القرن الخامس نشبت الحروب بين (طغان) ملك الترك ، وملك الصين ، كانت الدائرة فيها على ملك الصين .

وفى القرن السابع تغلغل العنصر المغولى فى الصين ، واعتنق ملوكهم[٢] دين الإسلام وجعلوا (كاشغر) عاصمة دولتهم الجديدة ، وأسلم منهم جنكيزخان وترماشين .

وقد أشير على ملك الصين المغولى (بركة)[٣] بمهادنة الخليفة العباسى المستعصم ، ومن ثمة تبودلت الهدايا والرسائل بين أكبر قوتين إسلاميتين إحداهما دولة الصين وعاصمتها (كاشغر) ، والأخرى دولة بنى العباس الهاشمية القرشية العربية وعاصمتها بغداد ، ثم صار (القان أو الخان) لقباً على ملوك الصين ، وصارت (خان بالق) التى هى (پيكين) قاعدة المملكة الصينية . و (قراقوم) قاعدة التتار .

ولما انتشر العنصر المغولى المسلم فى الجهة الغربية ، والشمالية الغربية من البلاد . أخذ الصينيون الأصليون يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ولا سيما عندما أعلن الأمير يعقوب خان سنة ١٢٨٠هـ استقلاله بمملكة (كاشغر) فى الشمال الغربى ، التى عندها التقى بالصينيين ، فانتصر عليهم وكان جيشهم يتكون من أكثر من

---

(١) معجم البلدان .

(٢) تاريخ ابن خلدون .

(٣) صبح الأعشى .

مائة ألف مقاتل ، وعلى أثر هذا النصر المبين ، زلزلت الصين زلزالا ، إذ أوشك الأمير يعقوب خان أن يجعل الصين دولة إسلامية سنة ١٢٩٣ هـ[١] .

ولكنه كان فى ذلك الوقت محصوراً بين دولتين ، كلتاهما له عدو لدود هما : الصين وروسيا ، فاضطر إلى مهادنة هذه وعقد معها معاهدة تجارية ، ولما أراد دعم الوحدة الإسلامية ، بايع السلطان العثمانى بالخلافة ، وانضوى تحت لوائه ، ليكون له عضداً وسنداً ، وطلب من دار الخلافة خبراء فى الفنون الحربية وسائر الصناعات الهندسية ، وأعد الجيوش ، ولكنّ المنية عاجلته قبل أن يشهد ثمار جهوده ، فانقسمت تركته بين أولاده واغتنم ملوك الصين هذه الفرصة ، فانقضوا على دويلاتهم وعادت إلى الصين كما كانت من قبل .

ويجب أن نتذكر هنا تلك المكاتبات بين ملك الصين المغولى المسلم أحمد بن هولاكو وسلطان مصر التركى الناصر محمد بن قلاوون ، فقد كتب أحمد بن هولاكو مع قاضى القضاة قطب الدين والأتابك بهاء الدين ليقول لصاحب مصر إن المغول « من الله على بصيرة وإن الإسلام يجبّ ما قبله . . . » وقد أورد أبو الفرج الملطى نص هذه الرسالة[٢] .

هذا وقد كانت رحلة ابن بطوطة إلى الصين فى عهد (القان)

---

(١) صفوة الاعتبار .

(٢) مختصر الدول .

المسلم سلطان الصين الذى أكرمه وهيأ له من أسباب الراحة ، ما جعله يطوف بأرجاء البلاد ، وتحدث عن أمير أمراء الصين وهو الأمير الكبير (قرطاى) ، وقد أقام له مأدبة بداره . واستضافه ثلاثة أيام ، وكلف أولاده بمصاحبته فى الزورق مع أهل الموسيقى والطرب «وكانوا يغنون بالصينى والعربى والفارسى»[1].

---

(١) تحفة النظار .

الفصل الثالث

ثقافة العرب فى الصين

بداية التراث :

إذا نظرنا إلى الثقافة بالمعنى العام الذى يتعامل به علماء الأجناس البشرية (الأنترو پولوچيا) ، كان لزاماً علينا أن نتناول — فيما نحن بصدده — ما خلفه العرب منذ البداية فى الصين من تراث اجتماعى يتضمن اللغة والدين والعادات والتقاليد والفنون والصنائع والآداب والعلوم ، ومظاهر الحياة اليومية من ملبس ومأكل ومشرب ، وحياة الفرد فى أطواره مع المستويات الاجتماعية ، ونظام المعيشة ، والتفاعل بالجهاز الحكومى المحلى والمركزى ، ونتائج الهجرات فى النسل والسحنة واللون والقامة . . إلى غير ذلك .

وسنحاول فى هذه الصفحات القليلة أن نوجز الإجابة على هذه المطالب ، بما يفى بالغرض ، على أساس أن المراجع العربية والصينية قديمها وحديثها ، لا تسعفنا بمادة خصبة منظمة ، كما هو المأمول ، قياساً على المعلومات المنهجية المعروفة فى المؤلفات المعاصرة .

ومع ذلك سنكتفى هنا برسم الخطوط العريضة للثقافة بالمعنى

الضيق ، ونحاول التعرف على الآثار العربية فى الصين منذ وطئت أقدامهم أرضها فى الجاهلية والإسلام . . وبعبارة أخرى نقول : ماذا أعطى العرب الصين ؟ أما سؤالنا : ماذا أخذ العرب عن الصين ؟ . . فجوابه فى مكان غير هذا من الكتاب .

وقد رأينا من قبل كيف انتقل العرب فى الجاهلية إلى الصين للتجارة يحملونها إليها ومنها ، براً وبحراً . . وكان هذا الانتقال من مواطن بالجزيرة العربية عمرت بالحضار التى مركزها منطقة اليمن ، وقد اشتهرت منذ القدم بالسيوف والحرير بصفة خاصة . ومعنى ذلك أن المصنوعات والمنسوجات العربية وجدت طريقها من اليمن إلى الصين ليستبدل بها التجار طرفاً وتحفاً يكاد بريقها يخطف الأبصار ، وكذلك الخيول العربية الجياد التى كان اقتناؤها فى الصين وقفاً على الأباطرة وأغنى أغنياء الأعيان بها .

أما التراث العربى فقد انتقل فعلا إلى الصين فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، وهذا ما يؤكده مؤرخو الصين أنفسهم لهذه الفترة ، فيقولون إن العرب دخلوا الصين الوسطى جماعات كالطوفان من مسافة تزيد على ألف فرسخ حاملة معها الكتب المقدسة التى خصص لها بهو فى القصر الإمبراطورى حيث تعرض ترجمات صينية لها ولغيرها من كتب القانون ، ومن هنا كان بدء انطلاقها وذيوعها فى مختلف ولايات الصين ، منذ حكم البلاد الإمبراطور (تاوتسونج) سنة ٦٥١ هـ ، وهو التاريخ الذى يحدده محمد تواضع الصينى المسلم كمبدأ لدخول العلوم الإسلامية .

أما المراكز الرئيسية لنشر الثقافة العربية فى الصين ، فكانت من غير شك بين جدران المساجد التى أخذت تتزايد حتى انتشرت فى الولايات والمدن والقرى والأحياء . . ويضاف إليها أيضاً « المعهد الإسلامى » الذى أنشئ فى مدينة هوشه Hochow بولاية (خانسو) حيث كان يتلقى به الطلاب علوم الدين . . ثم ينقلبون إلى ولاياتهم ، فينشرون بها ما تلقوه على أيدى أساتذتهم ، وبدأوا — كما يقول (برومهول Broomhall) نشاطهم فى أكثر من حواضر عشر ولايات ، أعدوا فيها أذهان الناس لتقبل مبادئ دين العرب .

وإلى جانب مراكز الإشعاع الإسلامى فى الصين ، يجب أن نذكر (لانشوما) وهى أول مدرسة إسلامية فى الصين ، وهى نسبة إلى منشئها (لانشوما) المسلم الفقير الذى عاش فى (لانشو) عاصمة (خانسو) ، ولم يكن يملك من حطام الدنيا غير طاحون صغير ، فكان يعمل به هو وتلاميذه نصف النهار لكسب القوت ، ثم ينصرف فى المساء إلى الدرس فى (لانشوما) وبهذا أمكنهم التفقه فى أمور دينهم ، ووفر عليهم مشقة السفر إلى (بخارى) و (سمرقند) .

الصين . . والمعارف :

فى « طبقات الأمم » الذى وضعه صاعد الأندلسى (—٤٦٢هـ) جاء ترتيب الصين منها فى الطبقة السابعة أو الأخيرة ، من

حيث العناية بالعلوم ، وقال منوهاً بنصيبهم المتميز فى المعرفة « ... وحظهم من المعرفة — التى بزوا فيها سائر الأمم — إتقان الصنائع العملية ، وإحكام المهن التصويرية ، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال ، ومقاساة النصَب فى تحسين الصنائع » .

بهذا قصر صاعد براعة أهل الصين على الفنون والصنائع ، وعلى ذلك فهم أحوج إلى الثقافة العربية من علوم نظرية تطبيقية كالحساب والفلك ، ليخرجوا عن طريقها من عالم الأشباح والأساطير والخرافات ، إلى عالم الحقائق والوقائع ، مما لم تستوعبه الكونفوشيوسية التى يدينون بها ، والتى أصبحت مهددة بخطر داهم ، من جراء انتشار دين العرب فى الصين .

وكان من الضرورى والمعقول معاً أن يؤكد الإسلام — أولا وبادئ ذى بدء — وجوده ، ويحدد معالمه فى الصين كنظام للعبادات والمعاملات ، حتى إذا تمكنت العقيدة من قلب الفرد ، انطلق فى حماسة لتطبيقها على نفسه كجزء من المجتمع ، والتصرف وفق تعاليمها ، وفى نطاق أبعادها ، وحدودها المرسومة.

ومن هنا كان دين العرب أول تراث لهم من ثقافتهم يأخذ طريقه إلى الصين ، عن طريق اللغة التى نزل بها القرآن ، والتى هى أولى ركائز حضارتهم وعمود قوميتهم ، وسبيل علاقاتهم بغيرهم من الأمم ، وكان من الطبيعى أن تنتشر بعض الألفاظ العربية ، وتحتل مكانها من لغة الصين حسبما قرره ابن خلدون

من أن المغلوب يقلد حتماً لغة الغالب، وإن كان العرب فى هذه الحالة غير غالبين بحق السيف ، ولكنهم مع ذلك غالبون بحق العقيدة وتوالى الهجرة وازدياد النفوذ ، ومرور الأجيال ، مع الاستقرار .

انتصار اللغة العربية :

وأكثر الألفاظ العربية ذيوعاً فى لغة الصين تشير إلى الأخلاقيات ، بما يدل دلالة واضحة على تعطش الصينيين الكونفوشيوسيين إلى مزيد من الثقافة الأخلاقية ، فكان لهم من لغة الإسلام ما يروى ظمأهم ويشفى غلتهم ، فهذه الألفاظ : قربان . إيمان . حق . باطل . كذب . روح . صبر . صدقت حقيقت . زكات . حج . عالم . جاهل . وعظ . رزق . شفاعت .. [1] كلها مما دخل فى لغة الصين بكثرة ، وتناقلته الألسنة .

وكان لا بد من وجود تراجمة ينقلون إلى الصينية تفاصيل الدين الإسلامى ، وبطبيعة الحال كان لا بد أن يكون هؤلاء التراجمة من بين العرب أنفسهم الذين مارسوا التجارة بين الأمتين ، واكتسبوا خبرة باللغتين من طول ترددهم على الصين ولا سيما المخضرمين منهم الذين عاشوا فى الفترة ما بين الجاهلية والإسلام ، وأسلموا .

---

(١) بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين .

ونتج عن ذلك حتما بدء حركة الترجمة إلى الصينية ؛ ترجمة القرآن والسنة والأحكام الدينية والسيرة النبوية ، وما يتبع ذلك من علوم الدين والدنيا ، كما ترجمت العلوم الكونية من العربية وعلى رأسها الفلك العربى ... بناء على أمر الإمبراطور ،وذلك سنة ٧٨٦هـ = سنة ١٣٨٤م ، ونهض بهذا العمل علماء الإسلام وحكماء كونفوشيوس معاً ، وعلى أثر ذلك جعلت حكومة الصين التقويم العربى نافذاً فى جميع أرجاء البلاد بصفة رسمية .

وتوالت بعد ذلك الدراسات والترجمات من اللغة العربية إلى لغة الصين بأقلام صينية إما أصيلة وإما مستعربة . . تناولت البحوث الكلامية والتصوفية والأخلاقية والفيزياقية ، فظهرت ترجمة صينية لكتاب « الغرض من الرجوع إلى الحق » فى علم التوحيد ، و « الفصول الأربعة فى علم العبادات بالأدلة العقلية » فى مطلع النصف الأخير من القرن الحادى عشر الهجرى ، ووضع العالم الصينى « ماشى بابا » كتاب « درة الناصحين » فى التصوف .

وشهدت المجالس علماء الإسلام فى مناظرات مع علماء البوذية، تدور حول التصوف والطبيعة ، وكان الأباطرة يسمحون لهم بالتفرغ للبحث والدراسة ، وإعفائهم من التجنيد ، وأعدوا لهم مساكن خاصة فى (نانكين) ، وعرف منهم : (تاى يو آخوند) مؤلف كتاب ، « الدراسة الكبيرة فى الإسلام » .

واشتهرت فى الأوساط الإسلامية بالصين كتب عربية ذات قيمة منها « هداية المسلمين » فى التوحيد ، و « حقيقة الإسلام » فى التصوف ، ومنذ أربعمائة سنة ، والدراسات الإسلامية فى الصين تزداد وتتنوع ، بعضها بالعربية وبعضها بالصينية ، وبعضها مترجم عن الفارسية إلى العربية أو بالعكس ، من ذلك : كتاب « المبادئ للمسلمين » كتبه (تاى يو) سنة ١٠٨٣ هـ فى الفقه ، وظهر أيضاً قاموس عربى صينى كتبه بحروف عربية (جان تسى موى) وعنوانه « جوهر » . وفى سنة ١٠٩٠ هـ وضع (شاى يوشان) كتابه « موقظ الضالين » .

ومن أشهر المؤلفين فى عهد الملك (يان تسونغ) العالم الصينى (ماجو) الذى ينحدر من سلالة شمس الدين عمر الشريف العربى ، فقد ظهر له كتاب « الإبرة المغناطيسية فى الإسلام » سنة ١٠٧٦ هـ ، وقد حباه الملك بالتكريم ، وأغدق عليه من عطفه . . لقاء ما كان يلقيه بين يديه من مسائل عسكرية عن الإسلام .

وفى سنة ١١٠٣ هـ ظهر كتاب « نبذة عن العبادات » وهو أحد مؤلفات العلامة (مى وان كى) شرحه بالأدلة الكونفوشيوسية مما يدل على رسوخ قدمه وتضلعه فى العلوم الإسلامية والفلسفة الكونفوشيوسية .

ومنذ نحو مائتين وخمسين سنة غادرا العلامة الصينى المسلم —

(صالح ليوجى) مدينة (نانكين) فى سبيل الحصول على مراجع إسلامية ، دعاه من أجلها العالم (ما) ، وعلم وهو فى الطريق بوجود كتب عربية كثيرة فى حوزة أسرة (سيو) مودعة فى قوية (جوسيان) ، فعثر منها على كتاب بالفارسية عن السيرة النبوية يقتنيه بعض الأفراد ، فما لبث أن ترجمه إلى لغة بلاده، ثم نقل إلى الإنجليزية بعنوان « النبي العربى » . هذا فضلا عن مؤلفات صالح ليوجى الذائعة الصيت فى القرن الثانى عشر الهجرى ومنها « آداب الإسلام » و « الطبيعة فى الإسلام » و « سيرة المصطفى » وهو الكتاب الذى غادر من أجله نانكين إلى (شان تونغ) فى شتاء سنة ١١٣٣ هـ وقدم له سايو الذى ينتمى أصلا إلى سلالة هاشمية .

وفى القرن الماضى وضع العلامة (نور الحق ماجى بون) كتبًا بالعربية والفارسية والصينية فى النحو والصرف والفلك والبيان والمنطق ، والتوحيد والتصوف والكيمياء .

وفى مطلع القرن العشرين ظهرت تفاسير صينية للقرآن ، والحديث، ودراسات مقارنة بين الإسلام والمسيحية والكونفوشيوسية والبوذية ، وأشرف بعضهم على مجلات دورية تصدر بالعربية ، ونقل بعضهم « العقائد النسفية » فى علم الكلام للنسفى إلى الصينية ، وظهر كتاب « الزواج بين الصينية والعربية » كما ظهرت سنة ١٩٣٢ ترجمة للقرآن ، والقاموس العصرى ، كما أن « رسالة التوحيد » للشيخ محمد عبده قد ظهرت لها ترجمة صينية وتعليقات

ضافية بقلم عثمان عفيف الدين ماشوى تو آخوند . وظهرت ترجمات صينية لمؤلفات طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وفريد وجدى وعبد المعتال الصعيدى ورشيد رضا ومحمد عبده ، ومحمد غلاب .

وهكذا وقف أهل الصين طيلة أربعة عشر قرناً من الزمان على التراث العربى قديمه وحديثه وفى مختلف ميادينه ، وكان للبعوث الصينية إلى الأزهر الشريف بالقاهرة أكبر الأثر فى دعم روابط الأخوة بين هاتين الأمتين ، عن طريق الثقافة العربية لغة وديناً وعلماً وأدباً . وفى سنة ١٩٣١ عين أول شيخ لرواق الصينيين بالأزهر وهو محمد إبرهيم شاه كوجين .

ولسنا ننسى هنا فى العالم العربى ما كتبه محمد تواضع بعنوان « الصين والإسلام » ، وبدر الدين حى بعنوان « العلاقات بين العرب والصين » وكلاهما بالعربية الفصحى ، ويفصحان عن عمق التفكير وتقصى الحقائق والمعلومات استناداً إلى أوثق المصادر العربية والصينية مع مقارنتها بما كتبه الألمان والطليان والإنجليز والفرنسيون والأتراك والفرس وغيرهم . ويكفى أن نشير إلى أن الكتاب الأخير المنشور بالقاهرة سنة ١٩٥٠ قد دبجه قلم المؤلف الذى تخرج فى الجامعة الإسلامية بدلهى والجامعة الأزهرية بالقاهرة ، وهذا أكبر مظهر على التبادل الثقافى بين الصين ، والقاهرة قلب العروبة النابض .

وإلى جانب التراث الدينى انتشر فى الأوساط الثقافية

بالصين كثير من المؤلفات فى الطب العربى سنة ١٢١٥م عندما غزا قبلاى خان ملك المغول بلاد الصين ، وكان لأهل الصين اهتمام خاص بعلم الفلك ، واشتهرت به مدرسة سمرقند التى طالما اقترنت بمدرستى الفلك فى بغداد والقاهرة ، واشتهرت أيضاً رسالة ابن يونس فى الفلك عندما ترجمها ونشرها فى الصين العالم الصينى فى الفلك (كوشوكنغ) سنة ١٢٨٠م .

الأوربيون فى حيرة :

وإذا كانت الدراسات الإسلامية قد انتقلت إلى الصين من البلاد الإسلامية المجاورة من الأتراك والفرس والمغول ، فإن انتقالها إليها من منابعها العربية الأصيلة كان أسرع وأبلغ نفاذاً ، لأن النقل عن العربية مباشرة أيسر من النقل عن أى لغة أخرى كالتركية أو الفارسية أو الهندية ، خصوصاً وأن دول الإسلام تلك كانت هى الأخرى أشد ظمأ من الصين إلى ينابيع التراث العربى الأصيل .

وعندما تكلم (جوستاف لوبون) فى كتابه « حضارة العرب » قال : إن العرب قد نقلوا الكثير من ثقافتهم العلمية إلى الصين ، مما حدا بالأوروبيين إلى الظن بأنها ثقافة ترجع إلى أصل هندوسى أو صينى .

وكانت غارة المغول على الصين سنة ١٢١٥ ميلادية نقطة هامة فى تاريخ الثقافة العربية ، فعلى أثرها تعزز مركز العلوم

العربية فى الصين ، واتسع نطاقها ، سواء من حيث النقل أو الاقتباس أو الترجمة .

كما أن علماء الصين بعدأن استوعبوا الكثير من ألوان التراث العربى، صاروا يقدمونه إلى الهنود فى آنية صينية ، وأصبح الباحثون فى تراث الصين كثيراً ما يخلطون — عن جهل — بين ما هو صينى أصيل ، وما هو عربى منقول .

وعلى كل حال . كانت (بيكين) أو (كاشغر) العاصمة القديمة للثقافة العربية أشبه بخلية النحل من كثرة سكانها الذين كانوا يبلغون يوماً ما نحو مليونين وربع مليون نسمة منهم ١٧٠ ألف مسلم ، وكان مسجد (نيو— كي) الذى أنشأه بها ناصر الدين سنة ٩٩٧م غاصاً على الدوام بحلقات الدراسة.

ويوجد فى (بيكين) هذه اتحاد للأدباء فى الوقت الحاضر ، وقد وجّه الدعوة لأحد الأدباء المصريين وهو الأستاذ محمود البدوى لإلقاء محاضرة عن (الأدب المصرى والكتاب المصريين الذين حملوا الشعلة الوطنية حتى قامت الثورة الكبرى بقيادة جمال عبد الناصر) ، وكان فى هذا الاتجاه من الصين نحو مصر منذ قامت الثورة بداية طيبة لبدء صفحة جديدة من العلاقات الوثيقة بين الدولتين ، على أساس حكيم من ثقافتنا البصيرة ، وسياستنا الرشيدة القائمة على التعايش السلمى ، تماماً كما فعل العرب الأولون عندما استوطنوا الصين منذ أربعة عشر قرناً أو أكثر .

العرب . . يكتبون عن الصين :

إن من دواعى الفخر حقاً . . أن يكون العرب أسبق الأمم كتابة عن الصين . . وأغزرها مادة ، وأدقها وصفاً ، وأعمقها إدراكاً ، وأبعدها نظراً ، وأصدقها رواية وشهادة ، فلا عجب إذا كانت «العربية» أول مصدر للمعرفة الحقيقية عن هذه البلاد السحيقة . . المفعمة بالأساطير ، المليئة بالعجائب والغرائب .

لقد بدأ العرب يكتبون عن الصين منذ وطئت أقدامهم أرضها . . ولكن لم نستطع الوقوف على ما كتبوه عنها إلا على يد تاجر عربى من البصرة ، رحل إلى الصين فكتب معلوماته فى العام التالى لرحلته أى سنة ٢٣٧هـ = ٨٥١م . . ومع ذلك كان هذا التاجر واسمه سليمان البصرى . . أول من كتب عن الصين — على ما نعلم — حتى الآن ، فلا عجب إذا استحق منا كل تقدير وإعجاب ، إذ أصبح رائداً لجميع المؤلفين الذين جاءوا بعده ، وأغلبيتهم العظمى أيضاً من العرب .

ولا تنحصر أهمية السبق العربى فى الكتابة عن الصين فقط ، وإنما تتسع هذه الميزة أيضاً حتى تجعل من الثقافة العربية سجلا وافياً ، يمكن أن يستقى منه كل دارس — فى أى ميدان من ميادين المعرفة — عناصر قوية للكشف عن نواحى التطور الاجتماعى لأى جزئية دقيقة من جزئيات العلوم والفنون والآداب .

ولقد مضى حين من الدهر ، اختفت فيه المصادر العربية من خزائنها فإذا بها تظهر من جديد فى أوروبا وأمريكا منشورة بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية ، وعليها تعليقات وشروح لعدد كبير من المستشرقين فأصابوا أو أخطأوا . . ولكن تبين أن تراثنا هذا كان بمثابة القاعدة الرصينة التى أقيمت عليها دعائم البحوث الأنثروبولوجية الحديثة .

الفصل الرابع

الصين بين يديك

أبو الصين :

زعموا – ولا ندرى من هم الذين زعموا – أن الأرض عندما مات نوح عليه السلام ، توزعت بين أولاده ، فاختص بنو يافث بن نوح بالمشرق ، فصنع عابور بن سويد بن يافث سفينة كما فعل جده من قبل ، وحمل عليها أولاده ، فأقلعت بهم عبر البحر الشرقي بمحاذاة الساحل إلى نهايته ، حتى نزل أرضاً شاسعة ، سرعان ما عمروها ، فأنشأوا المدن ، وشيدوا العمائر ، واستخرجوا المعادن، وشقوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار . فلما مات عابور خلفه ابنه صابور وهو أبو الصين [1] . فيكون هو أصل الصينيين الذين هم ذرية عابور ، منذ عبر بهم نهر بلخ واستوطنوا جميعاً هذه البقعة الشاسعة من الأرض ، وجعلوا عاصمتهم الأولى (أنمو [1]) [2] .

ويقال إن أول ملوك الصين هو (صاين) بن باعور أو عابور صانع السفينة ، وبه سميت (الصين) حيث استمر حكمه

---

(١) نخبة الدهر .

(٢) مروج الذهب .

بها ثلاثة قرون [1] وكان (حرامان) أحد أبناء (صاين) ، وفى عهده صنع أهل الصين السفن ، وحملوا فيها الرجال ، وأوفدوهم بالهدايا إلى الهند والسند وبابل ، فقدموها إلى ملوك هذه البلاد ، وعادوا منها أيضاً بما فيها من طرائف ، ليقف ملك الصين على ما عند غيره من الممالك ، ورغب جيرانه الملوك فى زيارة الصين ، وإغرائهم بالجواهر والعطور والآلات التى حملوها إليهم.

بهذا لفتت الصين أنظار الأمم ، فأسرعوا ببناء السفن ، التى حملت وفودهم إليها . ومن ثمة بدأت الصين علاقاتها السلمية والتجارية بغيرها [2] .

الصين . . عربية ! !

حاول الكاتب العربى ياقوت الحموى فى القرن السابع الهجرى . . أن يبحث عن أصل تسمية «الصين» [3] ، فعرض لآراء القدامى كابن الكلبى الذى روى عن الشرقى أن الصين كانت تسمى أيضاً (غرا بنا) نسبة إلى (غبر) بن كماد بن يافث بن نوح . . ومنه المثل العربى ؛ ما يدرى شغر من بغر . . ومنهم أبو القاسم الزجاجى الذى يردّ أصل التسمية إلى (صين) بن بغبر بن

---

(١) تاريخ اليعقوبى .

(٢) مروج الذهب .

(٣) معجم البلدان .

كماد) أول من نزل بها وتدّيرها .

ثم يذكر بلداناً أخرى كل منها تسمى (الصين) ولكنها غير (الصين) وهى :

١ ـ الصين : موضع بالكوفة

٢ ـ الصين : موضع قريب من الإسكندرية

٣ ـ الصينية : بليدة مشهورة تحت (واسط) بالعراق.

٤ ـ صينية الحوانيت : اسم آخر لهذه البلدة الأخيرة .

وإذا نسب إليها قيل (صيني) ، فهذا سعد الخير الأندلسى الصينى (ـ ٥٤١ هـ) وقد سافر من الأندلس إلى الصين ، وكان يكتب الصينية فعرف بالصيني . . وهذا الحسن بن أحمد ابن ماهان الصيني ، وينسب إلى صينية واسط . . وإبرهيم بن إسماعيل الصيني من الكوفة وذهب فى تجارة إلى الصين فعرف بالصيني . . وعبد الرحمن الصيني التاجر المغربى[1] ـ الذى ذكره أبو حامد الغرناطي ـ وكان ممن زار الصين وتحدث بعجائبها .

أبواب الصين :

يقول ابن الوردى نقلا عن الهردى أن للصين اثنى عشر باباً[2] ، وهى صخور عتيدة فى البحر ، بين كل باب وآخر

---

(١) تحفة الألباب .

(٢) خريدة العجائب .

مسلك يؤدى إلى موضع بعيد عن بلاد الصين ، كالمتاهات ، فإذا ضلت السفن طريقها وانحدرت فى هذه الشعاب البحرية أو المتاهات ارتمت فى تيارات جارفة من المياه الملحة والعذبة ، حتى تبعد عن الموانى التى تقصد الرسو عليها من سواحل الصين.

عجائب بحر الصين :

شغلت هذه العجائب أذهان العرب الرحالة ، فأخذوا يحكونها لمعاصريهم ، وبطبيعة الحال أضافوا إليها من أخيلتهم حواشى جعلتها تشوق سامعيها وتحفز بعضهم إلى ارتياد هذه البلاد .

منها ما حكاه البكرى (– ٣٦٣هـ) فى كتاب « الممالك والمسالك » بمناسبة الحديث عن دابة فى البحر توجد فى البحر الحبشى تسمى « الأوال » . حيث الجزيرة التى لعلها سميت (أوال) لهذا السبب ، والسمك هنالك يسمى « الأوالى » طول الواحدة منها أربعمائة ذراع إلى خِمسمائة « وربما هدأ البحر فيظهر طرف من جناحه كالشراع العظيم وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء فى الجو أكثر من غلوة سهم ويحشر بذنبه وأجنحته السمك إلى فيه ، وقد فغر فاه فتهوى إلى جوفه جرياً ، فإذا بغت هذه السمكة بعث الله إليها سمكة نحو الذراع تدعى (الإنك) فتلصق بأسفل أذنها أو أذنبها فلا يكون لها منها خلاص حتى تضرب برأسها وتموت فتطفو فوق الماء فتكون كالجبل العظيم» .

ويتحدث البكرى أيضاً عن (العنبر) الذى يقتله حوت (الأوال) فيطفو فيصيده الزنوج .

ومنها ما حكاه القزوينى فى القرن السابع الهجرى ، وضمنه كتابه « عجائب المخلوقات » فتحدث عن ركوبه بحر الصين مع التجار ، فهبت عليهم ريح عاتية حولت المركب عن طريقه وكان الربان أعمى ، ومع ذلك كان حاذقاً ، واستطاع بخبرته أن ينجو بالمركب والركاب من دوامة بحرية كادت تودى بحياتهم .

ومنها ما حكاه ابن الوردى فى القرن الثامن الهجرى وضمنه كتابه « خريدة العجائب » فروى عن عبد الرحمن المغربى الذى ركب بحر الصين ، فألقتهم الرياح على جزيرة واسعة رأوا فيها قبة بيضاء تلمع وتبرق ويبلغ ارتفاعها أكثر من مائة ذراع ، وكأنها الجبل الراسخ ، فأخذوا يضربونها بالفئوس والصخور والأخشاب وإذا بها « بيضة الرخ » وقد انشقت عن فرخ الرخ ، وتعلقوا بريشة من جناحه وظلوا يجذبونها حتى قلعوها وقتلوه ، وطبخوا بعض لحمه ، فاسودت لحاهم بعد البياض ، ولم يعد للشيب أثر على وجوههم ، وفى وضح الشمس حوم فوق سفينتهم طائر الرخ العظيم ، فألقى حجراً ضخماً فى البحر كان له دوى عظيم ، لو سقط فوقهم لأهلكهم أجمعين .

وتحدث ابن الوردى أيضاً عن « جزيرة الحكماء » التى وصل إليها الإسكندر ذو القرنين ، ووصف بخياله المجنح

سكانها وما جرى بينهم وبين الإسكندر من حوار شائق ينتهى إلى مغزى أخلاقى مفاده أن الموت يسوى بين الأمير والفقير ، كما يحكى لنا أيضاً عن « التنين » الكائن المائى الضخم الذى احتل مكانه من التصاوير الصينية والأساطير العربية .

ويصور لنا ابن بطوطة فى رحلته ما شاهده بنفسه فى بحر الصين عندما حملتهم الرياح نحو جبل يبعد عنهم بعشرين ميلا ، ولا عهد للبحارة بجبل فى هذا المكان من البحر ، فأوشكوا على الهلاك ، لولا أن رأوا هذا الجبل يرتفع فى الهواء وإذا به طائر الرخ الذى كانوا يتخيلونه جبلا ، فقد ذكر الجاحظ أن طول جناحه عشرة آلاف باع ، وشهرته فى بحر الصين تعدل شهرة التمساح فى نيل مصر .

مراكب الصين :

رأينا كيف صنع « أبو الصين » السفن — كما فعل جده الأكبر « نوح » من قبل — وحمل ذريته عليها حتى وصل بهم إلى أرض الصين التى سميت باسمه ، وعمرها هو وأولاده ، ولما استقروا بها بعثوا إلى الممالك المجاورة بالهدايا ، فتشجع الملوك على صنع السفن ، وأوفدوا بعوثهم بالهدايا ، ومن هنا كانت نشأة العلاقات البحرية بين الصين وسائر الأمم .

وقد وصف لنا ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى السفن الصينية التى شاهدها وصفاً دقيقاً ، إن دل على شىء ،

فإنما يدل على تقدم الصين فى صناعة السفن ، ويؤكد ما رواه العرب القدامى عن تاريخ البحرية الصينية .

ذكر ابن بطوطة أن سفن الصين ثلاثة أصناف : الكبير يسمى (جنك) وجمعه (جنوك) والمتوسط منها يسمى (زو) والصغير يسمى (ككم) ، ويكون فى المركب الكبير ما بين ثلاثة قلوع إلى عشرين ، ويصنع القلع من الخيزران الرفيع منسوجاً كالحصر ، ويظل على الدوام منصوباً يدور مع الريح حيث دارت . ويحتوى كل مركب على ستمائة بحار وأربعمائة مقاتل من كل نوع حتى رماة النفط ، ويتبع كل مركب ثلاثة هى : النصفى والثلثى والربعى ، واشتهرت « الزيتون » بصناعة السفن ، وهى إحدى موانئ الصين .

وقد أسهب ابن بطوطة فى تفاصيل هذه الصناعة والخشب والمسامير الضخمة التى تصنع منها ، وعدد المجاذيف التى على جوانب السفينة وعدد المجذفين ، وما تحتويه من الغرف ، والخضراوات والبقول والزنجبيل الذى يزرعونه فى أحواض من الخشب على ظهر المركب ، ويتحدث أيضاً عن أهمية القبطان وطريقة تقديم التحية العسكرية له إذا نزل إلى البر ، والمرابطة على بابه طول مدة إقامته حتى يعود إلى استئناف رحلته . « ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه إلى البلاد » كما يقول ابن بطوطة .

وكان لابد من اهتمام علماء « المسالك والممالك » من العرب

بذكر الطرق البحرية بين بلادهم وبين الصين ، فنرى ابن خرداذبة فى القرن الرابع الهجرى يصف لنا مسالك السفن من مصب نهر دجلة عند (الأبلة) إلى الهند والصين ، ويذكر أن السفن العربية كانت تحاذى الساحل العربى وساحل الهند حتى ملبار ، كما يحدد طول البحر من القلزم إلى بلاد (الواق واق) أى اليابان بأربعة آلاف وخمسمائة فرسخ .

سور الصين العظيم :

وهو من عجائب الصين ، التى عنى بها المؤرخون ، ولكن أكثرهم قد خلط بينه وبين سد يأجوج ومأجوج . أما سور الصين فيبتدئ من الشطوط الشرقية ، ويمتد فى الصين حتى درجة عرض ٤٠ شمالا ، ودرجة طول ٢٩ شرقاً ، ويبلغ امتداده نحو ١٢٥٠ ميلا ، وسمكه من أسفل نحو ٢٥ قدماً ، ومن أعلى نحو ١٥ قدماً ، وارتفاعه يتراوح بين ١٥ قدماً و ٢٠ قدماً . وتوجد عدة حصون فى عدة أماكن على امتداده يبلغ ارتفاع بعضها ٤٠ قدماً . وهو مبنى من الحجارة والآجر والقرميد والطين [١] .

وقد أقامه أحد ملوك الصين وهو (إينج تسونج) من أسرة (تسين) قبل ميلاد المسيح بنحو ٢٢٠ سنة ، لصد هجمات المغول والقبائل الشمالية عن المملكة الصينية الأصلية ، على أن ذلك لم يأت بالفائدة ، لأنهم فعلا اقتحموا هذا السد المنيع ،

---

(١) صفوة الاعتبار .

واجتاحوا البلاد وأثخنوا فيها .

وهذا السور لم يعد كما كان من قبل ، فقد أصابه الخراب من عدة جهات ، وتهدم بسبب الغارات المتلاحقة على الصين فى مختلف العصور ، فتصدى لها (شى خوانغ تى) بقواته . . فى إحدى هذه المرات .

وإذا كان الأوربيون ينكرون (سد يأجوج ومأجوج) الذى أقامه ذو القرنين، فإن العرب قد كتبوا كثيراً وكثيراً جداً عن هذا السد أو الردم ، كمفسرين للآيات الواردة عنه فى القرآن والسنة والخبر ، أو كمؤرخين ، أو كمكتشفين ذهبوا بأنفسهم إلى موضعه من الصين ؛ للاعتبار والذكرى، وكما كان الخلط عندهم ظاهراً بين الإسكندر الأكبر المقدونى وبين ذى القرنين . كان كذلك الخلط بين سور الصين ، وسد يأجوج ومأجوج ، وكلاهما إحدى عجائب الدنيا . . ولكل منهما تاريخ .

يأجوج ومأجوج :

من النادر أن نجد من بين مؤلفى العرب واحداً يفرق بين (ذى القرنين) و (الإسكندر الأكبر) فهما عندهم ــ بما يشبه الإجماع ــ شخص واحد ، هو الذى فتح المشارق والمغارب ، وانتهى من فتوحاته إلى ما لا وراءه نبات أو حيوان أو إنسان . . وارتبط اسمه بالصين . . ويأجوج ومأجوج . . والسد العظيم . . مما ورد فى التوراة والإنجيل والقرآن فيما بعد . . فكيف يكون (ذو القرنين) الذى عنى به العرب هو الإسكندر المقدونى فاتح

المشرق ؟ وهل كان الإسكندر نبيًّا أو رسولاً حتى ينزل عليه وحي من السماء ؟ « قلنا ياذا القرنين . . » ؟ !

ومن الطبيعي أن يحاول المفسرون البحث عن « يأجوج ومأجوج » . . من هم ؟ ما صفاتهم ؟ أين وجدوا ؟ ماذا فعل بهم ذو القرنين ؟ ثم ما هو ذلك الردم أو السد الذى حجزهم خلفه ؟ ولماذا ؟ وماذا وراء قصتهم الواردة فى القرآن من مغزى ؟

ومؤرخو العرب لم يغفلوا هذا كله أو بعضه فيما كتبوا . . وكذلك علماء الدين واللغة . . مع تفاوت عجيب بين كتاباتهم عن الموضوع . . ومع كثرة تلفت النظر حقًّا . .

وبتجريد القصة من تهاويلها ، نخرج منها بأن يأجوج ومأجوج قبائل همجية من ذرية يافث ، يسكنون بين جبلين ، والمسالك إليهم وعرة ، وتمتد رقعة أرضهم إلى أقصى الشمال حتى بحر الظلمات . . معيشتهم فوضى وفساد وعبث بالأمن ، وطالما ضج منهم بالشكوى سكان الصحارى المتاخمة للصين من الغرب حيث يبدأ الإقليم السابع من أقصى الشمال مما يلى الإقليمين الخامس والسادس . . لا حصر لهم . . لا دين لهم . . لا نظام لهم . . عمالقة وأقزام . . جيرانهم وأبناء عمومتهم الترك . . استصرخوا ذا القرنين . . وقد مكن الله له فى الأرض وقالوا إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فاجعل بيننا وبينهم سدًّا . . على أن يجعلوا له أجراً . . ولكن ذا القرنين استعان بالترك . . فجمعوا الرجال وأحضروا الحديد والنحاس . . وبنى عليهم

ردماً حال بينهم وبين الفساد فى الأرض ..فأمنوا شرورهم .. إلى يوم القيامة . . يوم يقوم الناس لرب العالمين . .

وبلغ هذا الردم من المتانة حداً لا يتصوره العقل ، لأنه من الحديد المنصهر فى النار ، والمثبت بالنحاس المذاب . . ويرتفع إلى مستوى الجبلين الواقعين بين أرمينية وأذربيجان . . ممتداً إلى مائة فرسخ طولاً ، وخمسين ذراعاً عرضاً ، ومائتى ذراع ارتفاعاً فما استطاعوا أن يصعدوا إليه أو أن ينقبوه . . وما استطاعوا بعده أن يهلكوا الحرث والنسل كما كان شأنهم من قبل . . وتركهم ذو القرنين يومئذ يموج بعضهم فى بعض . .

وفى ذات ليلة رأى الخليفة العباسى الواثق بالله (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) فى منامه أن سد يأجوج ومأجوج قد انفتح ، فأزعجته الرؤيا . . وظن أنها القيامة . . فأصدر أمره إلى ترجمانه سلام بالسفر إلى السد ليأتيه بالخبر اليقين . . وأجزل له فى العطاء والنفقة . .

وخرج سلام من (سامراء) . . ثم عاد بعد أن عاين أمره . . وقص على الخليفة ما رآه ، وحضر الوزير ابن خرداذبة حكايته للخليفة ، وسجلها فى « المسالك والممالك » .

شهد سلام المدن التى خربتها يأجوج ومأجوج ، والحصون القريبة من الجبل الذى أقيم الردم فى أحد شعابه . . ورأى أقواماً مسلمين يتكلمون العربية والفارسية ، ولهم مساجدهم ومدارسهم ، ولكنهم فى عزلة تامة عن العالم ، حتى وصل إلى جبل منقطع

فى هضبة ملساء، بها جبل عريض، وبه سد يأجوج ومأجوج.. لا نقب فيه ولا كسر . . وجاء بمقاساته للخليفة بكل دقة .. ومعه قطع من الحديد الذى تخلف من بناء السد العظيم . .

وقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم ، فى سورتى « الكهف » و « المؤمنون » ، رداً على سؤال اليهود للنبى عليه السلام عن « ذى القرنين » الذى سلك إلى المشرق « حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال : ما مكّنّى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة ، أجعل بينكم وبينهم ردماً : آتونى زُبَر الحديد (قطع الحديد) ، حتى إذا ساوى بين الصدفين (الجبلين) قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً ، قال آتونى أفرغ عليه قطراً (نحاساً) ، فما اسطاعوا أن يظهروه (يصعدوا إليه) ، وما استطاعوا له نقباً ، قال هذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكّاءَ ، وكان وعد ربى حقّاً ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعا » . . . « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج (أى السد المقام فى وجههم لحجزهم) وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق ، فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . . » .

ولعل فى هذا الموجز عن قصة سد يأجوج ومأجوج ما يصلح لأن يكون محاولة للإجابة على السؤال الذى أثرناه من قبل وهو : لماذا أراد العرب أن يعرفوا الصين ؟ . . وها قد عرفنا كيف كانت هذه القبائل المجاورة للصين موضع اهتمام العرب لفهم ما ورد عنهم فى القرآن الكريم . .

العمران بالصين :

إذا تركنا جانباً ما نقله العرب عن تعمير أولاد نوح لبلاد الصين أول ما نزلوا بها ، وإقامتهم المدن ، وشقهم الأنهار فيها والتمسنا مظاهر هذا العمران عند أقدم عربى زار الصين وسجل مشاهداته بها ، نرى حديثاً ضافياً للرحالة سليمان السيرافى الذى زار هذه البلاد فى القرن الثالث الهجرى ، وذكر لنا نواحى متعددة للحياة الاجتماعية فيها ، منها النشاط التجارى فى ميناء (خانفو) ، وتولية رجل مسلم منصب الحكم فى الصين من قبل الملك ، وشيوع لبس الحرير فى الصين صيفاً وشتاء . وإن اختلف نوعاً عند الملوك والعامة ، والأرز كطعام العامة ، والحنطة (القمح) كخبز للملوك ، ووفرة التفاح والخوخ والرمان والسفرجل فى البلاد ، ووجود ملوك محليين فى مدن الصين البالغ عددها مائتين ، والأبواب الأربعة التى لكل مدينة ، وعادات الصين فى دفن الموتى ، وانتشار الخط والكتابة لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير أو صغير وكبير ، وأن أى ملك عندهم لا يتولى

الحكم إلا بعد الأربعين من عمره ، حرصاً على إقامة العدل ، ووجود قضاة للفصل بين الناس ، وفى كل مدينة مدرسة ومعلم ، ويتعلم الفقراء بها هم وأولادهم على نفقة بيت المال ، وبينما ترى النساء فى الصين حاسرات سافرات ترى الرجال يضعون أغطية على رؤوسهم ، ومنازلهم من الخشب ، وهم جميعاً يحبون الملاهى.

وبعد مائة عام تقريباً من هذه الرحلة يحدثنا أبو دلف مسعر أيضاً عن مشاهداته فى الصين ، ومظاهر العمران فيها بعد اختراقه الآفاق من المغرب إلى المشرق ، ووصفه الدقيق للمعيشة التى عليها كل قبيلة مر بها فى طريقه إلى الصين من مأكل وملبس ومشرب وكذلك العادات والجنسيات والعبادات السائدة فيها ، حتى ينتهى إلى وصف الحياة فى (سندابل) حاضرة الصين ، كما رآها .

وفى القرن السابع الهجرى يتحدث القزوينى فى «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» عن الهيكل الوثنى المستدير المقام بأقصى الصين ، وأبوابه السبعة ، والقبة الضخمة العالية ، والجوهرة التى فى أعلاها كرأس العجل وتضىء جميع أقطار الهيكل ، والبئر الواسعة التى فيه ، والطوق الذى على رأسها ، وعليه خط قديم معناه : هذه البئر مخزن الكتب التى هى تاريخ الدنيا وعلوم السماء والأرض ، وما كان فيها وما يكون ، ولا يصل إليها إلا من وازن علمه علمنا . وهذا الهيكل مقام على صخرة عالية كالجبل الأشم ، ومن تعرض لهدمه أو اقترب منه عشرة أذرع مات لساعته .

ومن عجائبها أيضاً طاحون له حجران أعلاهما لا يتحرك بينما

الأسفل هو الذى يدور ، فيخرج من بينهما دقيق لا نخالة فيه ونخالة لا دقيق فيها ، لا يختلط أحدهما بالآخر .

ويحكى أيضاً أن بالصين قرية يجتمع أهلها كل سنة حول غدير ماء فيها ، فيلقون فرساً كلما أرادت الخروج منه ردوها إليه ، حتى يسقط المطر ، فإذا أخذوا من الماء كفايتهم وامتلأ الغدير أخرجوا الفرس وذبحوها فوق جبل مرتفع ، وتركوا لحمها طعمة للطير ، وفى اعتقادهم أنهم إن لم يفعلوا ذلك كل سنة ، كان الحرمان نصيبهم .

وعلى الرغم من الموضوعات المنوعة عن الصين ، المتناثرة فى طيات المؤلفات العربية ، فإن لدينا عنها ذخائر لا تنفد ، تضمنتها « مروج الذهب» للمسعودى البغدادى ، و « تحفة النظار » لابن بطوطة الطنجى ، أولهما عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وقد سمع وقرأ كثيراً عن الصين ، والآخر عاش فى القرن الثامن الهجرى ، وقد رحل بنفسه وشاهد ، فسجل مشاهداته .

أما المسعودى — كمؤرخ — فقد لفت الأنظار إلى تاريخ الحضارة الصينية ، عندما جعل سنة ٢٦٤ هـ حداً فاصلاً بين عهدين من تاريخ هذه البلاد ، فقد كان ملوك الصين الذى أوجز المسعودى سيرهم صالحين مصلحين سواء فى الداخل أو الخارج ، واتسمت عهودهم المختلفة بالعدل والإصلاح وتوطيد علاقاتهم بغيرهم ، واستمروا على ذلك حتى تمرد أحد العصاة وهو (ياسر) فجمع الأشرار حوله ، وأعلن الثورة على الملك ،

وزحف بجيشه إلى مدينة (عاصور) الواقعة على نهر الصين العظيم ، واستولى عليها ، ثم على (خانفو) ، ومات فى المعركة منها أكثر من مائتى ألف ما بين قتيل وغريق ، وكان ذلك سنة ٢٦٤ هـ ، وعندها تغير كل شيء .

لقد أمر (ياسر) بقطع غابات التوت ، فانقطع الحرير الصينى عن بلاد العرب ، ثم حاصر عاصمة الصين (حزران) وانتهى الحصار بهزيمة الملك وجنوده ، ولكنه استنجد — وهو على مدينة (مد) على حدود التبت — بملك الترك ابن خاقان . فأنجده بأربعمائة ألف مقاتل تحت إمرة أحد أولاده ، وظلت الحرب بينهما سجالا خلال سنة كاملة ، فكانت الدائرة على ياسر ، ومن التف حوله من ملوك المقاطعات .

وعاد ملك الصين (يعبور) ، كما تسميه العامة أى : ابن ماء السماء — وقد أنهكت هذه الحرب الضروس كل قواه ، واستقل كل أتباعه السابقين كل بمقاطعته ، ولم يعد يطمع منهم فى غير الولاء الأسمى له ، ومكاتبته باسم « ملك الصين » حرصاً على أمن البلاد وسلامتها من الغارات الأجنبية والفتن الداخلية ، وكان هذا الحدث التاريخى بداية لعهد تقسيم الصين إلى الولايات أو المقاطعات المعروفة إلى اليوم .

ونظر ابن بطوطة إلى الحضارة الصينية نظرة المشاهد لا نظرة المؤرخ ، فقال : « وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ، لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم

الأرض ، ويخترقه النهر المعروف بـ (آب الحياة) ومعنى ذلك (ماء الحياة) ، ومنبعه من جبال تسمى (كوه بوزنة ـ جبل القرود) ، ويمر فى وسط الصين مسيرة ستة أشهر ، إلى أن ينتهى إلى (صين الصين) ، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة ، وعليه النواعير (السواقى) الكثيرة ، وببلاد الصين السكر الكثير ، مما يضاهى المصرى بل يفضله ، والأعناب والإجاص ، وكنت أظن أن الإجاص العثمانى الذى بدمشق لا نظير له ، حتى رأيت الإجاص الذى بالصين ، وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ (خوارزم) و (أصفهان) ، وكل ما ببلادنا من الفواكه ، فإن بها ما هو مثله وأحسن منه ، والقمح بها كثير جداً ، ولم أر قمحاً أطيب منه ، وكذلك العدس والحمص . . » .

ويتحدث ابن بطوطة أيضاً عن صناعة الفخار الصينى ، (الخزف) ، وقد اشتهرت به (مدينة الزيتون) ومنطقة (صين كلان) ، وشرح طريقة تصنيعه من تراب الجبال ، وتصديره إلى الهند بل إلى بلاد المغرب ، ومما لفت نظر ابن بطوطة فى الصين ، ضخامة حجم الدجاج ، وضاهاه حجم الإوز ، حتى إن الديك الصينى ـ كما رآه ـ على قدر النعامة ، وفى مدينة (كولم) سبق له أن رأى الديك الصينى ، فلم يصدق حتى رآه بعينه .

وكما عنى ابن بطوطة بهذه المظاهر العمرانية فى بلاد الصين

زادت عنايته بمظاهر التقدم الاجتماعى ، فلفت أنظارنا إلى الفضائل التى يتحلى بها الفرد والمجتمع ، الحاكم والمحكوم على السواء ، مما سنفصله فى الصفحات القادمة .

وقد حكى تاج الدين السمرقندى — وكان ممن زار الصين ، — فقال : « وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ، ومن قرية إلى قرية » ، كما تحدث عن المدن المشهورة وعلى رأسها قاعدة المملكة (خان بالق) ثم (قراقوم) قاعدة التتر ، والخنساء (خانسو أو) أعظم الموانى الصينية ، ثم (الزيتون) وهى ميناء أيضاً ، وكذلك المدن التى ذكرتها الكتب (ينجو) و (خانفو) و (خانجو) و (سوسة) .

ولما كانت التبت جزءاً من الكيان الصينى فقد حظيت هى الأخرى بعناية ابن بطوطة وغيره ، وقورنت ظباء الصين بظباء التبت ، وجودة المسك هنا عما هناك ، بسبب المرعى ، وتسلطت التبت ردحاً من الزمن على الصين والهند والترك والزنج وغيرهم وكان ملكها يسمى (الشاه — ملك الملوك) .

والفيلة كثيرة بالصين كثرتها بالهند ، ويحكى لنا صاحب « السيرة الحلبية » عنها فيقول « رأيت أن ملك الصين كان فى مربطه ألف فيل أبيض » .

وإذا كان ابن بطوطة قد حدثنا عن حيوان (الكركدن) — كما شاهده فى رحلته — ببلاد السند ، وكيف يصاد ، فإن ابن خرداذبة قد وافانا بفكرة عن أهمية « قرن الكركدن » بالنسبة

لأهل الصين ، فيقول إنه إذا شق قرن الكركدن من أوله إلى آخره ظهرت منه صورة بيضاء فى صورة إنسان أو دابة أو سمكة أو طاوس أو أى طائر آخر ، فيتخذه أهل الصين مناطق (أى أحزمة جمع نطاق أو منطقة) ثمن الواحدة منها يتراوح ما بين ثلثمائة دينار وأربعة آلاف دينار .

ويتحدث ابن النديم هو الآخر عن أسرار هذا القرن فيما عرفه من الراهب النجرانى الذى دخل الصين ، فيقول إن (البشان) أفخر حلية لمقابلة الملوك فى الصين ، وهو القطع التى عليها صور مرسومة من غير رسام على القرن ، ولما كان ثمنه غالياً للغاية ، أمر الملك بإبطاله والاستعاضة عنه — فى المثول بين يديه — بمناطق الذهب وما يشبهه ، وعلم الراهب مما سمعه من علماء الصين وفلاسفتها أن الأنثى عند المخاض ، ترتسم على قرن وليدها أى صورة يراها عند الوضع مباشرة ، ذلك الحيوان مما يوجد بالصين وهو غير الكركدن .

الفصل الخامس

أهل الصين

صدّق .. أو لا تصدّق :

كل ما أثبته العرب عن الصين إنما يعد من العجائب والغرائب ، سواء فى ذلك روايات الرحالة والمؤرخين والجغرافيين عن غيرهم . أو شهادات الزائرين بأنفسهم لما لمسوه وعاينوه ، ومن هنا كانت أكثر المعلومات العربية عن هذه البلاد متضمنة فى كتب تنم عناوينها عن ذلك مثل « مروج الذهب » و « عجائب البلاد » ، و « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » و « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » و « تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » و « صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار » و « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » و « تحفة الألباب وتحية الإعجاب » ، إلى هذه العناوين التى تثير الاهتمام ، وتشوق القارئ ، فضلا عن الحرص على هذه المعانى فى تسمية الكتب مثل « نزهة المشتاق واختراق الآفاق » ، وسائر كتب « المسالك والممالك » .

وكان من الطبيعى أن تلقى هذه الغرائب وتلك العجائب من العرب فريقاً يصدق وفريقاً لا يصدق ، احتكاماً إلى العقل ، واستناداً إلى موازين التعديل والتجريح ، خصوصاً وأن العرب

قد أثبتوا براعتهم فى «علم الرواية» فكانوا روّاداً مبرزين فى تمييز «الخبر» الصادق من الكاذب ، من حيث «المتون» «والأسانيد» على حد سواء .

وقف «الأخباريون» العرب من أخبار الصين ، مواقف العلماء الخبراء : فلم يأخذوها على علاتها ، بل أخذوا يمحصونها ، عن طبع أصيل فى التأليف المأثور عنهم ، وهذه صورة تاريخية توضح لنا معالم هذه الحقيقة .

يقول الرحالة أبو حامد الغرناطى [١] «.. وكنت بمصر سنة ٥١٢ ﻫ واجتمعت بها بالشيخ أبى العباس الحجازى — وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة ، وكان الناس يحدثون عنه بالعجائب ، فقلت له يا أبا العباس : إنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب ، والآن أريد أن أسمع منك شيئاً عن عجائب خلق الله تعالى ، — وكان الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى حاضراً (ويقصد الطرطوشى عالم الإسكندرية الذى روى عن الحجازى أيضاً فيما يتعلق بالصين ، وأشار إليه فى «سراج الملوك») ، فقال أبو العباس : قد رأيت أشياء كثيرة ، ولا يمكن أن أحدث بها ، لأن أكثر الناس يحسبون أنها كذب ، فقال الشيخ الإمام أبو بكر (الطرطوشى) يكون ذلك من العوام الجهال ، وأما العقلاء وأهل العلم فإنهم يعرفون الجائز والمستحيل» .

---

(١) تحفة الألباب وتحية الإعجاب .

من هذا يتضح تماماً أن الثقافة العربية فى عنايتها بأخبار الصين من شتى النواحى الطبيعية والبشرية إنما صدرت عن ثقات ، حرصوا على تخليص موضوعاتها من الشوائب والتهاويل ، وعندما أوردوها على حقيقتها ، تناولتها أقلامهم الحرة بالنقد والتمحيص ، ولكن دون تغيير أو تشويه . . وتلك هى الأمانة.

شعوب وقبائل :

كان المسعودى أول مؤرخ عربى عنى بتاريخ وأجناس سكان الصين ، ورد أصلهم إلى عابور بن يافث بن نوح الذى عبر نهر بلخ منذ آلاف السنين ، ويمم بأولاده بلاد الصين الأكثر منهم وتفرقوا فيها ، فمنهم : (الجيل) سكان جيلان ، والأشروسية ، والصفر ، وهم بين بخارى وسمرقند ، ثم الفراغنة والشاس وأسبجار ، وأهل بلاد العبرات ، فبنوا المدن واشتغلوا بالزراعة ، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء سكنوا الصحارى : الترك الحرمح والطغرغر وأصحاب مدينة توسان (بين خراسان والصين) ، وهم أشد أجناس الترك بأساً وأقوى شوكة وأضبط نظاماً .

هم إذن بدو وحضر ، كما يفهم من كلام المسعودى الذى كتب ذلك قبل غيره من المؤلفين العرب — فيما نعلم — وهو القائل أيضاً إن أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها فى أنسابها ، ويرعون ذلك ، وينتسب الرجل إلى خمسين

أباً حتى يصل إلى عابور وما بعده . . ولا يتزوج الرجل إلا من أهل الفخذ الذى ينتمى إليه ، « ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصح للبقاء وأتم للعمر » .

وكأنى بالمسعودى لا يقرهم على هذا « الزعم » لأن العرب هم أيضاً « يزعمون » أن الزواج فى الأقارب مدعاة للنسل الضعيف الضاوى ، حسبما يروى عن النبى عليه السلام « اغتربوا لا تضووا » .

على كل حال ، هذه هى محاولة عربية رائدة لتفهم أجناس الصين ، قام بها مؤلفنا العربى القديم ، وقد عرفنا منه وممن سبقه ولحقه سائر الأجناس الأخرى التى امتزجت بالدماء الصينية على مر العصور بسبب الهجرات التى تلمسنا خطوط تقدمها نحو الصين من آسيا وإفريقية ، من عرب وعجم وزنوج وغيرهم ، فضلا عن موجات الغزاة المتتابعة التى من شأنها الاختلاط بين الأجناس ، والآن صار عنصر التتار المغول هو الغالب على جميع الأجناس ، وأخذ العرب يضربون المثل بدمامة أهل الصين ، وقصر يأجوج ومأجوج ، ويقول عنهم ابن الوردى إنهم قصار ضخام الرءوس .

وقد ذكرنا فى مواضع متفرقة من الصفحات السابقة فترات انتقال العرب إلى الصين ، وعلى ذلك يكون العرب المهاجرون من تبابعة اليمن إلى هضبة التبت ، قبل الإسلام بقرون ، قد أصبحوا عنصراً هاماً فى الشعب بل الشعوب الصينية تميزوا باللون

والسحنة والشعر والأنف والقامة وبالتالى فى الفوارق المميزة للحضارات بعضها عن بعض ، « وهم أشبه بالعرب فى الألوان والخلق من سائر الأمم »[١] .

كما أن حملة قتيبة بن مسلم التى عمت شطر الصين فى نهاية القرن الأول الهجرى كان لها اعتبارها أيضاً فى أهل الصين ولا سيما بعد أن تزوج العرب على أثر هذه الغزوة من الصينيات ، فجاء النسل بجنس يحمل الملامح العربية .

وعلى كل حال فإن منافذ العرب إلى الصين ظلت مفتوحة على الدوام ، عن طريق البر وطريق البحر ، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة ، لأن إحدى جزر الخليج العربى كانت عامرة بقبائل عربية ، ومنها كان الصيادون والتجار ينتقلون إلى الهند ومنها إلى الصين ، على أى نحو من الأنحاء .

اللغات فى الصين :

بلاد شاسعة الأرجاء كالصين تمتد أربعة أشهر فى ثلاثة ، وتقوم فى أرجائها المترامية الأطراف جبال وهضاب وسلاسل ، وشعاب وفجاج . . من الطبيعى ألا تكون وسيلة التفاهم فيها لغة واحدة . . وهذا الأمر قد شغل مؤلفى العرب القدامى منهم قبل المحدثين . . فالإصطخرى المعروف بالكرخى — الذى هو من رجال القرن الرابع الهجرى — يقول « ولمملكة الصين ألسنة

(١) الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر .

(لغات) مختلفة . . فأما أرض الصين والتبت فلهم لسان (لغة) مخالف لهذه الألسنة [١]» . .

وإذا عرفنا أن الإصطخرى – الذى نقل عنه ابن حوقل أيضاً هذه العبارة – قد اعتمد على كتاب « صور الأقاليم » لأبى زيد البلخى ، تبين لنا أن العرب لم يغفلوا هذه الجزئية من مقومات المجتمع الصينى .

كما أن « أبا دلف فى عبوره بالقبائل التى عدّدها قبل دخوله الصين ، حدثنا عن العرب البادية المقيمين بموضع يقال له (القليب) استقر فيه من تخلف من التبابعة عند غزوهم بلاد الصين وقال عنهم « يتكلمون بالعربية القديمة ، لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا »[٢] .

الديانات فى الصين :

لم يترك العرب جانباً من جوانب الحياة عند الصين إلا ذكروه فى مؤلفاتهم ، ولا سيما الديانة ، وقد رأينا فيما سبق كيف احتفظوا بعقائدهم عندما دخلوا الصين قبل الإسلام وبعده . مع البداوة والحضارة سواء بسواء، كما أن المؤرخين والجغرافيين لم يغفلوا ذكر الديانات السائدة ، كل فى العصر الذى عاش فيه ، وكل حسبما بلغه أو شهد بنفسه .

---

(١) المسالك والممالك .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

فهذا الرحالة العربى سليمان البصرى ، يحكى لنا — عند زيارته للصين — أن أهلها يعبدون الأصنام « ويزعمون أن الأصنام تكلمهم ، وإنما يكلمهم عبّادها ، وهم يؤمنون بالتناسخ » وتناسخ الأرواح من الظواهر الدينية التى عرفت منذ أقدم العصور فى الهند والصين .

ويقول المسعودى إن مذهبهم المانية (أى المانوية أتباع مانى) والسمنية وتشبه عباداتهم عبادات قريش قبل الإسلام ؛ إذ يسجدون للأصنام ، أما عقلاؤهم فإنهم يعبدون الخالق ، ويتخذون مع ذلك تماثيل من الصور والأصنام يتوجهون إليها بالعبادة ، وقد انتقل إليهم هذا الدين من الهند بحكم الجوار ، وكثيراً ما كانت تشب الحروب بين الترك والصين ، فى حالة الاختلاف بينهما حول ذبح الحيوان ، وعقيدة الملك فيه . . ذلك أن ملوكهم ذوو آراء ونحل متعددة ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن أحكام العقل والحق ، فى إقامة القضاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى ، يحدثنا العالم البغدادى المشهور (ابن النديم) صاحب « الفهرست » عن أحوال أهل الصين ، ولا سيما عن علماء موثوق بهم كأبى بكر الرازى ، وأبى دلف عن طريق التواتر ، وجماعة زاروا الصين ومن بينهم راهب نجرانى قدم منها سنة ٣٧٧ هـ ، أو رجل صينى لقيه قبل سنة ٣٥٦ هـ أو جماعة من أهل أندلس الصين .

أما الراهب فقد قص على ابن النديم أن أموراً جرت فى الصين قضت على المسيحية بها ، وانتهت بتخريب كنائسها ، وإفناء النصارى جميعاً اللهم إلا رجلا واحداً . . ولم يذكر لنا السبب فى ذلك . . وقال أيضاً فى موضع آخر من كتابه إن صورة (البغبور = ابن السماء = ملك الصين) موجودة بالمعبد الكبير بمدينة (غراز) وهى فى أرض (خانقون) ، وذكر أن مذهب أهل الصين الثنوية والسمنية وأن العامة يعبدون الملك ويعظمون صورته ، وهم إذن يعبدون الأصنام ويقدسون الملوك . ويقارن أبو حامد بينهم وبين أهل الهند لأنهم مثلهم لا يأكلون الحيوان ولا ما يخرج منه كاللبن والعسل ، ويحرمون على المسلمين ذبح البقر ، وكل ما عدا ذلك فهو لهم مباح . وقد سبق أن أشرنا إلى رحلة أبى دلف إلى الصين ، ويكفى هنا أن نذكر له فى هذا المقام عنايته بتعريف العالم العربى بديانات القبائل الصينية التى نزل بأحيائها ، ومنها عرفنا الكثير عن المسلمين الموحدين ، والعلويين الزيديين ، واليهود والنصارى والمجوس والهندوكيين ، وتشريعاتهم ، وقد جاء فى « معجم البلدان » لياقوت أن معبد الصين أكبر من مسجد بيت المقدس ، وأن فيه تماثيل وتصاوير ،وفيهأيضاً أصنام،وبدٌّ (صنم) كبير بمثابة المعبود الأكبر ، ومما قاله اليعقوبى عنهم إنهم يعبدون النار فى معابد خاصة أخرى ، ويقول ابن الوردى إنهم أهل أوثان وأهل نيران ويعبدون الثعابين .

وفيما ذكره ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى أن « أهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود .. وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة « حى » للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم ، ولهم فيها المساجد . . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم » .

وفى القرن الماضى أحصى بيرم التونسى الأديان فى الصين فى أربعة على النحو الآتى :

١ ــ ديانة بو : وهى التى كانت سائدة فيما قبل التاريخ بأربعة آلاف سنة ، وفى القرن السادس عشر قبل الميلاد أدخل عليها كونفوشيوس كثيراً من التعديلات ، فعرفت باسم الكونفوشيوسية .

٢ ــ ديانة لوتسيه : ويعتنقها نحو مائة مليون .

٣ ــ ديانة بوذا : وقد ظهرت فى أواسط القرن التاسع قبل الميلاد .

٤ ــ الإسلام : وقد ظهر فى القرن السابع الميلادى ، ويدين به نحو ستين مليوناً ما بين مواطنين وجنود مرتزقة من عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، وقد بلغ عدد المسلمين فى (پيكين) العاصمة نحو عشرين ألفاً ، ولهم بها جامع ضخم يسميه أهل الصين (هوى هوى Hui-Hui) ، فضلا عن عشرين مسجداً أخرى كلها لأصحاب المذهب الحنفى السائد

فيما عدا اثنين منهما للشيعة ، ويكتب المسلمون على أبواب مساجدهم (خوى خوى تانغ) أى محل الجماعة الإسلامية ، و (تسين جسن سور) أى معبد الإله الحق ، ويطلق الصينيون على علماء الإسلام (لاوجونو) أى المعلم الأكبر ، ويسمون جوامع المسلمين (ليطاسو) أى محل العبادة الأسبوعية[١] .

ملوك الصين :

تناول العرب ملوك الصين من جوانب متعددة ، فمنهم من حرص على ذكر تتابعهم الزمنى ، ومنهم من تحدث عن عاداتهم الخاصة وما يختلفون فيه عن سائر الشعب ، ومنهم من تناولهم فى فترات النصر والهزيمة فى الفتن الداخلية من جهة ، وفى الحروب مع غيرهم من جهة أخرى ، وكان أهم ما عنوا به فى سير الملوك ما اتصفوا به من عدل فى سياسة رعيتهم ، ورووا عنهم فى ذلك حكايات وأقاصيص .

كتب اليعقوبى عن ملوكهم الأوائل ، حتى (توتال) الذى شرع لهم الأحكام والصناعات ، واستمر فى الملك ثمانى وسبعين سنة ، فحزنوا عليه عند وفاته ، وكتب ابن الأثير فصولا ضافية عن التاريخ الحربى لملوك الصين فى مواضع متفرقة من تاريخه حتى القرن السابع الهجرى ، قلما نجدها فى مؤلفات أخرى

---

(١) صفوة الاعتبار .

عربية أو غير عربية ، فهو مثلا عندما يذكر أخبار الصين سنة ٢٦٤هـ يشير إلى حزم ملك الصين الذى وضع حداً لأعمال القرصنة البحرية والمناوشات التى جرت حوادثها بين السفن العربية والصينية ، وكان لتدخل ملك الصين فى الأمر أثره فى تخفيف حدة التوتر التى أصابت العلاقات التجارية بين العرب والصين خلال القرن الثالث .

وكان ملوك الصين يشملون برعايتهم أهل الفن . وكان لهم نظام تقليدى فى تشجيع البارعين منهم فيه ، كما سنتناول ذلك عند الكلام على الفنون فى الصين .

ولما اكتسح المغول بلاد الصين ، وتحولوا عن المجوسية إلى الإسلام ، نهض المؤرخون العرب والفرس بتأريخ هذه الفترة من حياة الملوك طوال القرنين السابع والثامن الهجريين ، فكتب عنهم رشيد الدين الهمدانى وابن خلدون والقلقشندى . وتناولوا حروبهم وانتصاراتهم ، وما ترتب عليها من علاقات بالبلاد الأخرى المجاورة وغير المجاورة ، وتأثير هذه الحروب فى الاستقلال المحلى الذى صار طابعاً لملوك المقاطعات وملوك المدن ، مع استمرار الولاء لملك الملوك . وعنى العرب أيضاً بذكر السفارات بين ملوك الصين وسلاطين الإسلام بشأن المصاهرة ، والرسائل المتبادلة بين أحمد بن هولاكو التتارى ملك الصين ، والناصر محمد بن قلاوون سلطان الديار المصرية .

وقد رأينا فى حديثنا عن الديانات فى الصين ، كيف

كان العامة يقدسون ملوكهم ، وينظرون إلى أن الواحد منهم (بغبور) أى أنه (ابن السماء) يسجدون له ، كلما وقعت عيونهم على صوره وتماثيله .

ومما حكاه الراهب النجرانى لابن النديم أن فى مدينة (بغران) بأرض الصين معبداً ضخماً طوله عشرة آلاف ذراع وعرضه مثله ، مصنوع من الصخر والآجر والذهب والفضة ، وهو مخصص للسجود أمام صورة الملك ، والطريق إليه محفوف بالتماثيل والصور والأصنام « تبهر عقل من لا يعرف كيف هى وأى شىء موضوعها » .

ويعقب الراهب على ذلك وهو يتحدث مع ابن النديم[1] بقوله :

الراهب : والله يا أبا الفرج أن لو عظم أحدنا من النصارى واليهود والمسلمين الله جلّ اسمه تعظيم هؤلاء القوم لصورة ملكهم ، فضلا عن شخص نفسه ، لأنزل الله له القطر (المطر) ، فإنهم إذا شاهدوها وقع عليهم الإفكل (الخوف) والرعدة والجزع ، حتى ربما فقد الواحد عقله أياماً .

ابن النديم : ذاك لاستحواذ الشيطان على بلدهم ، وعلى جملتهم ، يستغويهم ليضلهم عن سبيل الله .

الراهب : يوشك أن يكون ذلك .

---

(١) الفهرست .

ويميز ابن النديم حسبما قيل له — بين دين الشعب ودين الملوك فيقول : « ومن سنة الصين تعظيم الملوك والعبادة لها . على هذا أكثر العامة ، فأما مذهب الملك وأكابر الناس فثنوية وسمنية » وعلى ذلك تكون عبادة الملوك (مانوية) نسبة إلى (مانى) القائل بإلهين اثنين — ومنهما اشتق المذهب — هما النور والظلام.

هذا ويعتبر ملوك الصين أنفسهم ملوك الناس ، فقد رأينا فى الحديث الذى دار بين ابن وهب القرشى سنة ٢٥٦ ﻫ وبين ملك الصين أن أشهر ملوك العالم فى ذلك الوقت من وجهة نظر الصين خمسة ، وعلى رأسهم ملك العرب وهو الخليفة العباسى ببغداد على اعتبار أن الإمبراطورية الإسلامية فى عصر بنى العباس تقع فى وسط الدنيا ، وأن جميع الممالك محيطة به ، ويلى الخليفة العباسى فى الترتيب : ملك الصين ، وهو فى نظر نفسه « ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكه من رعيتنا ، فنحن ملوك الناس . . » ثم يليه ملك الترك ، فملك الهند ، وأخيراً ملك الروم . .

وقد لخص صاعد الأندلسى — وهو من أهل القرن الخامس الهجرى كما نعلم — فى « طبقات الأمم » ترتيب ملوك العالم فى نظر ملك الصين فقال « وكان ملوك الصين يقولون إن ملوك الدنيا خمسة ، وسائر الناس أتباع فيذكرون ملك الصين وملك الهند وملك الترك وملك الفرس وملك الروم ، وكانوا يسمون ملك

الصين ملك الناس ، لأن أهل الصين أطوع الناس للمملكة ، وأشدهم انقياداً للسياسة » .

والملابس الحريرية هى الشائعة بين جميع أهل الصين من عامة وخاصة حتى الملوك صيفاً وشتاء ، وإن كان الملوك يتميزون عن غيرهم فى نوع الحرير الذى يلبسونه .

العدل . . عند ملوك الصين :

اشتهر ملوك الصين عند العرب بأن الملك لا يتولى العرش إلا بعد الأربعين ، ليستكمل القدرة على تحمل الأعباء ، وإقامة موازين العدل فى الأحكام وسجلوا عنهم الحكايات والقصص ، وكذلك توليتهم القضاة والحكام والموظفين فى سلم الوظائف ، ممن عرفوا بحسن السيرة والاستقامة ، وعزلهم بل تأديبهم كل من يسىء إلى سمعة الحكم ، فشهد لهم الغرناطى بأنهم « أهل عدل وإنصاف »[1] ومما ذكره سليمان التاجر السيرافى أن رجلا مسلماً كان يتولى الحكم فى (خانفو) مجتمع التجار ، من قبل ملك الصين[2] .

ومما حكاه سليمان أيضاً عن العدل الذى كان يسود بلاد الصين من أقصاها إلى أقصاها ، أنه كانت توجد فى كل مدينة شىء يسمى (الدرا) وهو جرس يوضع على رأس الحاكم ، مربوط بحبل ممتد على طول الطريق على مسافة فرسخ ، فمن كانت له مظلمة من العامة حركوا الحبل ، فيدق الجرس . فيؤذن

---

(١) تحفة الألباب .   (٢) أخبار الصين والهند .

لصاحب الشكوى بالمثول بين يدى الملك لعرض مظلمته حتى يعود راضى النفس ، وقد أخذ حقه كاملا .

وأورد المسعودى فى « مروج الذهب » قصة طريفة لها دلالتها على تمسك ملوك الصين بأهداب العدل ، ولا سيما بالنسبة للواردين على بلادهم من الأغراب ، وموجز القصة أن تاجراً من سمرقند غادر خراسان فى تجارة إلى العراق ، وانحدر من البصرة بالبحر حتى وصل (عمان) ثم (كلة) ، وعندها ينتصف الطريق إلى الصين ، وعندها أيضاً تنتهى مراكب سيراف وعمان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، قادمة بمتاجرها من الصين [1] ومن (كلة) ركب سفينة صينية إلى ميناء (خانفو) وهناك طلب منه الخصى مبلغاً جسيما كرسوم جمركية على متاجره ، اعتماداً على تبعيته للملك وحظوته عنده ، فتوجه التاجر إلى العاصمة (أنموا) ليرفع شكواه إلى الملك وقد لبس الحرير الأحمر — كما تقضى بذلك التقاليد بالنسبة للقادمين من بلد بعيد.

وقبل أن يمثل بين يدى الملك ، تلقاه الحجاب ، واستمعوا إلى شكواه — كما هى العادة — واستوثقوا من كلامه حتى لا يتعرض للقتل إن كان كاذباً ، أو مائة ضربة بالخشبة إن بدا عليه الاضطراب ، ثم استأذنوا له على الملك ، فأذن له واستمع

(١) قبل هذا الوقت كانت مراكب الصين تصل إلى عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة .

إليه ، ومن حوله الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة من قواد الجيش ، كما هو الشأن عند الملمات والحروب ، وأصدر أمره إلى كل واحد منهم بالكتابة إلى المرءوس التابع لهم فى كل ناحية من نواحى المملكة ، ومنها (خانفو) ، أشبه ما نفعل اليوم بتوزيع نشرات بأوصاف المجرمين لضبطهم ، وكتب الملك هو الآخر إلى حاكم الميناء ، فذاع الأمر وشاع فى جميع أرجاء الصين على اتساع رقعتها وتباعد أقطارها .

وجىء بالخصى فجرده الملك من وظيفته ووبخه على فعلته ، وهدده بالقتل ولم يأمر بقتله مراعاة لسابق خدماته للملك ، وأنزله من عمله ، وجعله حارساً على المقابر الملكية ، لأن من لا يستطيع تدبير شئون الأحياء ، جدير به أن يقوم بحراسة الأموات .

أما التاجر الخراسانى فقد لقى من الملك كل إنصاف ، ورجع وهو يلهج بالثناء على ما حباه به من عدل وتعويض سخى .

والقضاء عند الصين يحكم بقتل الكاذب ، والمفترى على أى موظف بغير وجه حق ، والظالم ، والسارق ، والزانى [1] . والكافر إذا قتل مسلماً بالصين يقتل هو وأهل بيته ثم تصادر أموالهم وممتلكاتهم ، والمسلم إذا قتل كافراً ، دفع الدية فقط ودية الكافر عندهم حمار [2] .

وملوك الصين يتخذون من (الخصيان) مستخدمين فى

---

(١) تاريخ اليعقوبى . (٢) صبح الأعشى .

جباية الخراج ، وبعض المهمات ، وبذلك يصلون إلى المناصب التى عن طريقها يحظون بالقرب من البلاط ، ولهذا يعمد أهل الصين إلى إخصاء أولادهم حباً فى الرياسة ، وطلباً للمناصب[١] ، وكثيراً ما كان أحدهم يعيث فساداً استناداً إلى منصبه ، فيكون القتل مصيره المحتوم .

فنون الصين :

كان العرب أسبق الأمم احتفاء بفنون الصين ، وإشادة بها ، وتقديراً لبراعتهم فيها ، « فهم من أحذق خلق الله كفاً بالنقش والصناعة "الفن" » كما يقول الرحالة العربى التاجر سليمان البصرى ، ويؤكد المسعودى هذه العبارة ، وهو الذى تلقى كثيراً من معلوماته القيمة مباشرة عن أبى زيد السيرافى ، مكمل رحلة مواطنه سليمان ، فضلا عن أنه أحد الرواة عن ابن وهب القرشى فى مشاهداته الخاصة بالصين .

لهذا نرى فى « مروج الذهب » خلاصة هذه المعلومات الصادرة عن ثقات أمناء ، ولا سيما فيما يتعلق بنبوغ أهل الصين فى فنونهم ، لا يتقدمهم فيها أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه ، فيقصد به باب الملك ، يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع ، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة ، فان لم يخرج أحد فيه عيباً ، أجاز

---

(١) مروج الذهب .

صانعه ، وأدخله فى جملة صناعه ، وإن أخرج أحدٌ فيه عيباً اطّرحه ولم يجزه .

ويروى – على سبيل المثال – أن أحد الرسامين فى الصين ، رسم سنبلة سقط عليها عصفور ، على ثوب من الحرير ، وكان من البراعة لدرجة أن كل من رآه ظنه عصفوراً حقيقيًّا فوق سنبلة ، وظل الرسم معروضاً حتى رآه أحدهم فأظهر فيه عيباً ، ولما طلبه الملك ومثل بين يديه ، سأله عن العيب الذى فى الرسم فقال : إن العصفور إذا سقط على سنبلة أمالها ، بينما الرسام تركها قائمة على عودها ، فأخطأ . . وعند ذلك اقتنع الملك بوجهة نظره ، ولم يكافئ الفنان بشىء .

وكان ملوك الصين يهدفون من وراء ذلك إلى التشجيع على نشر الوعى الفنى ، والإفادة من آراء الناقدين للنهوض بالفنون ، أو كما قال المسعودى حرفيًّا « وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر ، فيما يصنعه كل واحد منهم بيده » .

وقد أعطانا ابن النديم فكرة واضحة عن الخط الصينى . وطريقة الاختزال السريع فى الكتابة الصينية التى هى نوع من النقش يتطلب حذقاً ومهارة حتى إن أخف يد لا تستطيع أن تكتب فى اليوم الواحد أكثر من ثلاث ورقات ، وأهل الصين يكتبون دياناتهم وعلومهم فى المراوح ، وقد شهد ابن النديم كثيراً منها .

أما طريقة الاختزال فى الكتابة عندهم فيسميها « كتابة

المجموع » ويشرحها بقوله : « لكل كلمة تكتب بثلاثة حروف وأكثر صورة واحدة ، ولكل كلام يطول شكل من الحروف يأتي على المعاني الكثيرة ، فإذا أرادوا أن يكتبوا ما يكتب في مائة ورقة ، كتبوه في صفحة واحدة بهذا القلم » ثم هم يقدرون على أن يبسطوها كما كانت بدون إخلال بتفاصيلها .

ويحدثنا محمد بن زكريا الرازي أيضاً عن رجل من الصين حضر عنده نحو سنة تعلم فيها العربية قراءة وكتابة في خمسة أشهر حتى صار فصيحاً سريع الكتابة ، وقبل أن يسافر إلى بلاده بشهر طلب من الرازي أن يملي عليه كتب جالينوس وعددها ستة عشر كتاباً ، فقال له الرازي إن الوقت ضيق ، وليس شهر كافياً لذلك، ولكنه استعمل طريقة الاختزال الصينية في كتابة هذه المؤلفات الضخمة في أقرب وقت ممكن ، حتى لقد كان الرازي وتلاميذه يملون عليه بأسرع ما يستطيعون ، وهو يكاد يسبقهم في كتابة ما يملى عليه .

وهذه الطريقة من الصعوبة بحيث لا يتقنها الذكي السريع في أقل من عشرين سنة ، أما المداد الصيني المشهور فقد وجد حظه هو الآخر من عناية العرب ، فقال ابن النديم إنهم يركبونه من أخلاط تشبه الدهن الصيني ، وقد رأى منه ما يشبه الألواح مختوماً عليها صورة الملك ، وقال إن القطعة الواحدة تكفي زمناً طويلا مع مداومة الكتابة وقلما تنفد ، وفي « الفهرست » مثال للخط الصيني القديم .

وإذا كانت الصين قد تخلفت فى مضمار العلوم عن غيرها — فى نظر صاعد الأندلسى — فإنها لقيت من كتابه « طبقات الأمم » مكانتها فى ذروة السلم الفنى ، فيقول عنهم: « وحظهم من المعرفة التى بزوا فيها سائر الأمم ، إتقان الصنائع العملية ، وإحكام المهن التصويرية ، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب ، فى تجويد الأعمال ، ومقاساة النصب فى تحسين الصنائع » .

أما أبو حامد فلا يستطيع أن يكتم إعجابه بالفنون الصينية فيقول بصدد كلامه عن أهل الصين « ولهم أنواع من الصنائع ، لا يهتدى إليها غيرهم كالفخار الصينى ، والديباج وغير ذلك » .

وقد أهدى ملك الصين لصاحب مصر الأفضل بن أمير الجيوش نفائس وطرائف لا يمكن تقدير قيمتها بمال منها — كما يقول أبو حامد — قطعة من عود هندى أسود يختم كالشمع . وبعض الأوانى الصينية التى تشبه الياقوت المخرم ، وقد أهدى أحد أولاد أبى العباس الحجازى — الذى كان يزور الصين — أبا حامد وهو بالإسكندرية ، بعض التحف الصينية مثل العود الفائق ، وورق الصين الأزرق والأحمر ، عليها تصاوير صينية من الذهب تفوق الديباج الرومى .

وكان عبد الرحمن الصينى من التجار الذين عرفوا الصين وعاد إلى بلاده المغرب بأموال طائلة ، وكان يتحدث عن عجائبها ، ويعرض لنفائسها ، وكان عنده « أصل ريشة » من جناح الرخ.

وهذا الأصل يتسع لقربة من الماء مما كان يثير إعجاب الناس.

وفى الصين — كما يقول أبو حامد أيضاً — « مناديل الغمر » إذا اتسخت ألقيت فى النار فتعود نظيفة ولا تحترق ، وإذا كانت لكل بلد من بلاد العالم خصائص ، فإن حرير الصين ، قد بلغ شهرة فى مختلف العصور ، لم يبلغها سواه ، من حيث النوع ، ومن حيث النسيج ، والصباغة ، والرسومات التى تضفى عليه كل روعة ، وكذلك قراطيس سمرقند التى غطت على قراطيس مصر فى المشرق ، مع أن قراطيس مصر هذه لا تفوقها شهرة عند أهل المغرب .

ويشهد الدمشقى لأهل الصين أيضاً بهذه البراعة فى فن التصوير فيقول : « وهم أحذق الناس بالمهن والصناعات ولا سيما التصوير ، حتى إن الرجل يفرق فى تصويره بين ضحك الهازئ والشامت والمتعجب والمسرور »[1] .

وكلمة « صينية » كان لها مفهومها الخاص فى المؤلفات العربية ، فقد كانت تعنى كل طرفة أو تحفة كائنة ما كانت كالأوانى والملابس والتماثيل والتصاوير ، لأن الصين وحدها قد اختصت بذلك كله وحدها دون غيرها من البلاد ، وفى هذا يقول الغرناطى : « والعرب تقول لكل طرفة من الأوانى وما أشبهها — كائناً ما كانت (صينية) لاختصاص الصين بالطرف »[2] .

---

(١) نخبة الدهر . (٢) تحفة الألباب .

وكان حديث ابن بطوطة عن فنون الصين حلقة متميزة من تلك السلسلة الذهبية التى انتظمت إعجاب العرب فى مختلف العصور. إذ يقول : « وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم ، فان لهم فيه اقتداراً عظيماً ، ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها ، إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد "الورق" ، موضوعة فى الأسواق ، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشياً ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد "ورقة" قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئاً من شبهه ، وذكر لى أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم . . »[1] وقد رأينا فيما مضى شدة اهتمامهم بصناعة التماثيل التى كانوا يعبدونها ، ويقيمون

(١) تحفة النظار .

لها المعابد « الهياكل » ، وما يضعونه من التحف والصور فيها ، مما تزخرفه أيديهم البارعة .

وعلى ذلك يكون أهل الصين أول من ابتكر فن التصوير لخدمة العدالة ، فإن الباعث لهم على تصوير الأغراب بهذه الدقة وتلك البراعة ، هو — كما يقول ابن بطوطة — أن الغريب إذا فر من بلادهم لسبب أو لآخر ، بعثوا صورته إلى البلاد للبحث عنه ، واتخاذ الإجراءات القانونية معه .

وقد رأينا فى المقابلة التى تمت بين ابن وهب القرشى وملك الصين ، كيف أن البلاط الصينى كان يحتوى على صور للأنبياء : نوح . موسى . عيسى . محمد ، وكل صورة تعطى فكرة عن رسالة كل نبي ، وخصائص قومه . . ومع ذلك حرص أهل الصين على رسم أشياء معروفة عنهم ، فكان انتشارها فى الخارج إيحاء بمصادرها . . من ذلك مثلا بعض الرسوم الخرافية كالتنين الصينى ، والطيور ، والخيول والكركدن . وغيرها مما تحلت به التحف من الذهب والفضة والخزف والبللور والملابس الحريرية والستائر والأوانى والمجوهرات .

تحف الصين . . عند العرب :

لم يذهب عربى إلى الصين وعاد منها إلا ومعه « صينية » بالمعنى الواسع ، وفى أى وطن يكون ذلك العربى تحظى التحف الصينية هذه بالعجب والدهشة . . فطالما حرص الأكابر على

اقتنائها من ملوك وسلاطين ووزراء وتجار ، وطالما حفلت بها القصور والدور ، وقاعات العروش فى المشرق والمغرب ، سواء كان هذا الاقتناء عن طريق الشراء من التجار ، أو عن طريق الإهداء من ملوك الصين ، أو عن طريق الاستيلاء عليها إبان الحروب والغزوات .

فى سنة ١٣٤ هـ غزا خالدبن إبراهيم أهل "كش" ، فانتصر على ملكهم ، واستولى على كثير من الأوانى الصينية المزركشة[١] والمطعمة بالذهب ، فضلا عن السروج والحراير والطرف والتحف التى لم يكن قد رآها أحد من قبل ، وكلها من صنع الصين ، وكان فى بغداد كما يقول اليعقوبى[٢] سوق خضير ، وكان يباع بها نفائس الصين وحدها فهى معدن طرائف الصين على حد تعبيره .

وكان بالكوفة فى القرن الثانى الهجرى عدد من الأسرى الصينيين ، تعلم منهم العرب كثيراً من فنونهم الدقيقة مثل نسج الأقمشة الحريرية الخفيفة ، وصناعة التحف الذهبية والفضية ، فضلا عن النقش والتصوير .

ومن ثغور الصين كان العرب يشترون المصنوعات الحريرية المختلفة ومنها الفرند (الحرير الملون لصنع الثياب) والكيمخا (الحرير المشجر) . فضلا عن المسك والعود وسروج الخيل

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .

(٢) البلدان .

والسمور (الفراء) والخزف[١] .

وفى سنة ٤٢٣ هـ بعث أمير بغداد إلى الخليفة العباسى ثلثمائة مبخرة صينية ، بينما كان من كنوز الوزراء الفاطميين بمصر مقادير ضخمة جداً ومنوعة من الخزف الصينى . وفى مصر اشتهرت الأوانى البللورية الواردة من الصين ، وقد تحدث عنها الغزولى المتوفى سنة ٨١٥ هـ فى كتابه[٢] ، كما أن المقريزى المؤرخ لم يفته الحديث عن عظمة أهل الصين فى صناعة (التكفيت) أى تطعيم المعادن بالذهب والفضة ، عند الكلام على سوق الكفتيين بمصر ، وكذلك الكداهى (الأوانى الفضية) المصدرة من الصين . وقد اكتشفت بعثات الآثار فى أطلال الفسطاط بعض التحف الصينية التى شغلت الأثريين طويلا بالبحث عن مصادرها .

ونستطيع أيضاً الوقوف على بعض الآثار الصينية فى البلاط العباسى ولا سيما فى أوج عظمة الدولة ، أيام هارون الرشيد ، ولم يكن صاحب « حضارة الإسلام فى دار السلام » مبالغاً فى جمعه عناصر الكتاب من مصادرها الوثيقة ، التى تذكرنا بالصوانى الذهبية تحمل الأكواب والدنانير فى الأفراح . . وما كان لبلد فى العالم أن يبلغ ما بلغه أهل الصين من الصنعة والبراعة وحسن الذوق فى صناعة هذه الصوانى وتلك الأكواب .

---

(١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك .

(٢) مطالع البدور فى منازل السرور .

العادات والتقاليد :

العادة سلوك منظم يقوم به الفرد فيصبح عنده طبيعة ثانية ، ومن مجموع العادات المنتظمة فى الأفراد تتكون خصائص للمجتمع تميزه عن غيره فتسمى تقاليد . . والعرب منذ عرفوا الصين ، سجلوا انطباعاتهم عن هذه البلاد ، ولكنها جاءت متناثرة بين صفحات مؤلفاتهم ، ومع ذلك كان لهم أيضاً فضل السبق على غيرهم فى التقاط هذه العادات والتقاليد .

فقد ذكر سليمان البصرى أن أهل الصين مغرمون بالملاهى ، وأن كل من قتل بالسيف عندهم أكلوا لحمه ، وبيوتهم من الخشب ، ويتزوج الرجل منهم ما شاء من النساء . . . إلى غير هذه الأمور التى تندرج تحت رءوس موضوعات مختلفة ، وقد سار على نهجه أبو زيد السيرافى فذكر الكثير عن طعامهم وملبسهم ، وغطاء الرأس عند الرجال والنساء ، وشيوع القراءة والكتابة عندهم ، وعاداتهم فى دفن موتاهم ، وقال فيما قال: « وليست لهم نظافة ، ولا يستنجون بالماء ». ومن هذا نرى أن سليمان وأبا زيد كانا لا يتركان صغيرة ولا كبيرة عن الصين إلا وكان لها نصيب فيما يرويان أو يكتبان ، مع الموازنة بين ما عند الأمتين من نظائر وفوارق .

وحدثنا المسعودى عن الزواج فيما بين الأفخاذ فلا يتعداها على زعم أن فى ذلك صحة للنسل وقوة للبنية وأطول فى البقاء . ولم

يفته الحديث عن عناية ملوك الصين بإقامة العدل ، وضبط المعاملات وفق أحكامهم السائدة .

وكان أهل الصين أسبق الأمم إلى « السجل المدنى »وإحصاء المواطنين وجيرانهم فى البلاد القريبة والبعيدة ، فى دواوين يعمل بها موظفون مختصون ، وكل مسافر سواء كان صينياً أو غريباً عليه إذا أزمع الانتقال أو السفر أن يكتب اسمه وعمره ومتاعه وحاشيته وأهله وعبيده حتى يصل إلى مقصده ، حتى لا يتعرض لأى سوء ، فيكون ذلك عيباً فى حق ملك البلاد ، وكذلك كانت عادة أهل الصين فى موانيهم ، حيث يصعد أمير البحر ورجاله إلى سطح كل مركب قادم أو راحل لإحصاء المسافرين جميعاً من التجار ورجال البحرية ، والمستخدمين ، وكان صاحب الجنك أى المركب مسئولا أمام أمير البحر عن كل من يسافر معه فإذا رجع وليس معه أحد من المسافرين سبق قيده فى القائمة تعرض للحساب والعقاب ، وعليه أن يثبت أنه مات أو هرب أو تخلف لسبب ما فى بلد ما وهكذا ، وعلى أصحاب السلع أن يثبتوا كل ما معهم من أموال ومتاجر أمام « حفاظ الديوان » أى موظفى الجمرك حتى لا يتعرضوا للغرامة فى حالة إخفائها عنهم

وكان ابن النديم والمسعودى وابن بطوطة فى طليعة المؤلفين العرب اهتماماً بهذه الخاصية التى انفردت بها الصين ، غير أن ابن بطوطة يزيد فى تعليقه على تغريم التاجر إذا أخفى شيئاً عن موظف الجمرك عند الإحصاء فيقول : « وذلك نوع من الظلم ،

ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين ، اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ».

ومن العادات العجيبة فى الصين أن أحدهم إذا مات ظل بمنزله فى حفرة من الخشب سنة كاملة ، ثم يدفن فى ضريح بلا لحد ، ويحزن عليه أهله ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات ، ومن خالف ذلك من مراسيم الحزن والحداد ضرب رأسه بالخشب ، وقيل له : أنت إذن قاتله . ويظل الميت بلا دفن حتى يحين الشهر الذى ولد فى مثله ، وفى نفس اليوم وفى نفس الساعة ، وفى اليوم الذى يشيعون فيه موتاهم إلى مدافنهم يزدان الطريق بأنواع الديباج والحرير ، كل حسب مكانته ، فإذا عادوا بعد الدفن أعطوا أموال الميت لمن يتبعه[1] ، وهم كالهنود يحرقون الموتى كما يقول ابن بطوطة .

وهم نباتيون لا يأكلون الحيوان ومنتجاته ، ويحرمون على المسلمين أن يذبحوا البقر ، ويبيحون لهم ما عدا ذلك ، وإذا مرض أحدهم أعطى الجزار من المال ما ترضى به نفسه عدة أيام نظير تأجيله ذبح الحيوان عدة أيام على قدر ما يرضيه[2] ، ومن قتل حيواناً قتل[3] وكفار الصين يأكلون الخنازير والكلاب حسبما شاهد ابن بطوطة فى رحلته إلى بلادهم ، كما أنهم يبيعونها فى الأسواق .

وإذا مات غريب فى بلادهم لا يتعرض أحد لأمواله

---

(١) الفهرست . (٢) تحفة الألباب . (٣) معجم البلدان .

ومتروكاته وأولاده ونسائه ، ويهتم أهل الصين بالحلية والزينة ، ويتفاوت هذا عن ذاك فى النوع والرسم بالنسبة للثياب المشتركة فيما بينهم، المصنوعة من الحرير صيفاً وشتاء ، «وأشرف ما يتحلون به قرون الكركدن لأنها إذا بُشرت ظهرت منها صور مدهشة عجيبة كاملة النقش والتخطيط ، فيتخذون منها مناطق "أحزمة" ، ويفتخرون بها ، فتبلغ قيمة المنطقة "الحزام" الواحدة أربعة آلاف دينار »[١] .

وهم يستكثرون من الخصيان لاستخدامهم فى البلاط الملكى ، ويعهدون إليهم بشتى الوظائف ، فيصلون إلى أسمى المناصب الرئيسية ، فيزدادون من الملك قرباً ، لهذا يطمع أهل الصين فى وصول أولادهم إلى هذا الشرف ، فيخصونهم منذ نعومة أظفارهم ، فإذا وصلوا إلى ما يريدون اطمأنوا إلى ثقة الملوك بهم ، فمن حاد منهم عن الطريق المستقيم ، وعاث فى الأرض فساداً ، قتله الملك أو على الأقل — وهو نادر — حط من قدره وجرده من شرف الوظيفة[٢] .

وإذا طلب أحدهم أن يخطب فتاة من أهلها وأراد الانصراف قالوا له : دع الأرض وخذ البذر ، فإذا خطف الفتاة من غير علم أهلها ، ثم ضبط بها أجبروه على دفع غرامة مالية مصطلح على مقدارها عندهم ، وحبسوه وربما ضربوه[٣] .

ويصف ابن بطوطة أهل الصين بأنهم أهل رفاهية وسعة

---

(١) خريدة العجائب . (٢) مروج الذهب . (٣) الفهرست .

عيش غير أنهم لا يعتنون بطعامهم وملبسهم حتى كبار التجار الأثرياء ، مع عنايتهم بالأوانى الذهبية والفضية ، ويجعلون من هذين المعدنين سبائك حتى تبلغ السبيكة أحيانًا قنطارًا ، ويضعونها على أبواب منازلهم ، وبقدر هذه السبائك يضع أحدهم خواتم فى أصابعه ، ومن كان له منهم خمس عشرة قطعة لبس خمسة عشر خاتمًا وصار يطلق عليه (ستى) كرمز على ثروته الهائلة كما نقول نحن (مليونير) مثلا .

ولا يتعامل أهل الصين بالنقود المعدنية ، وإنما بقطع من الورق على قدر الكف عليها صورة الملك ، فإذا بليت استطاع أحدهم أن يستبدل بها غيرها مجانًا من دار النقود التى يتولى أمرها أحد كبار الأمراء .

وعرفت الصين (الفنادق) منذ القدم . ينزل بها الغرباء متى شاءوا . وعلى النزيل أن يسلم ماله لصاحب الفندق ، وهو يشترى له كل مايريد ويحاسبه ، وتنتشر هذه الفنادق فى طول البلاد وعرضها ، من (صين الصين) غربًا إلى (پيكين) شرقًا وعلى كل منها حاكم يقيم به ومعه رجالة وخيالة ، وفى كل مساء يحصى جميع النزلاء ثم يغلق عليهم الباب بنفسه ، وفى اليوم التالى إذا أرادوا الانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل السفر . فتح الأبواب ونادى كل واحد باسمه ، وأرسل معهم من يوصلهم إلى المرحلة التالية من السفر ، حتى تصل إليه من حاكم الفندق التالى شهادة بوصول المسافرين سالمين ، فإن لم يفعل طالبه بذلك .

ويجد المسافر فى الفندق كل مايلزمه من الطعام ولا سيما الدجاج والإوز .
وتحرص الصين حكومة وشعباً على ألا ينفق الغرباء فى بلادهم أموالهم فى الفساد حتى لا يقال إنهم يخسرونها فيها ، وذلك حرصاً منهم على سمعة بلادهم فى الخارج .

ويستطيع الغرباء أيضاً أن ينزلوا عند تجار مسلمين معينين لذلك ، فإذا نزل غريب بدار تاجر مسلم مثله عليه أن يحصر ماله ، وعلى المضيف أن يتسلم منه أمواله ، وينفق عليه منها بالأمانة والصدق ، وما يتبقى يعطى له عندما يريد السفر إلى حيث يشاء .

وأهل الصين ملوكاً وحكاماً ومواطنين جميعاً يحترمون كل قادم عليهم « ويحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام ، ولا يؤخذ منهم أعشار (ضرائب) فى بيع وشراء ولا مكس ، فياليت ملوك المسلمين اقتدوا بمثل هذه السياسة الحسنة ، فهم كانوا أحق بها ، ولكن ذلك للحكمة الإلهية »[١] .

ومن عادة أهل الصين ولا سيما فى العصر المغولى أن يستخدم (التان — الخان) آلاف الصناع فى مدينته (خانسو) وهم فى القيود ، ولا يطلق سراحهم إلا بعد بلوغهم الخمسين من العمر ، فيستحقون — كسائر المواطنين البالغين هذه السن — رعاية الدولة فتنفق عليهم ، وإذا بلغ أحدهم الستين لم تطبق عليه الأحكام القانونية ورفع عنه التكليف احتراماً لشيخوخته ويسمى الشيخ عندهم (آطا) أى الوالد[٢] .

---

(١) تحفة الألباب . (٢) تحفة النظار .

دار المعارف

تقدم هذه المجموعة النفيسة فى الآداب الصينية : لمطالعة الأطفال والناشئة والشباب :

١ شجرة الكرز العجيبة
٢ رأس من الطين
٣ هدية التنين
٤ حكم رادع
٥ الأصدقاء
٦ كلام بوذا
٧ الحماقات الثلاث
٨ الحبوب المقوية
٩ الملك شقرا

[من مجموعة قصص وأساطير من الصين]

ثمن الكتاب ٦ قروش

١ النهر الأحمر
٢ القفاز السحرى
٣ جبل الكنوز السبعة
٤ الصنم السكرى
٥ البطيخ اللؤلؤى
٦ الثأر
٧ لوا الأحدب
٨ كنز الف

[من مجموعة حكا

ثمن الكتاب

الصين [من مجموعة

الصين المتحررة [من مجموعة مكتبة الثقـ

يناير ١٩٦٤

الثمن ٣٠ مليماً